

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الرابع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الرابع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٧

* (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ) : بالمطر وغيره .

(وَالْأَرْضِ) : بالنبات وسواه .

(قُلِ اللَّهُ) أى : قل إجابة عنهم إن لم يقولوه ، إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً .

(وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ) أى : وإنَّ أَحَدَ الفريقين منا ومنكم .

(لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : لَمُحِقٌّ متمكن من الحق ، أو مبطل منغمس فى الضلال الواضح .

(أَجْرَمْنَا) : أذنبنا . (تَعْمَلُونَ) : من الكفر والمعاصى .

(يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا) : يوم القيامة عند الحشر والحساب .

(ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) : ثم يحكم ويفصل بيننا بالعدل .

(الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) : الحاكم الفيصل ، العليم بما ينبغى أن يقضى به .

(أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ) : أعلمونى هذه الآلهة التى جعلتموها أندادًا لله فى العبادة .

(كَلَّا) : ردع لهم عن اعتقاد شريك .

(الْعَزِيزُ) : الغالب على أمره . (الْحَكِيمُ) : فى تدبيره وتصريفه لخلقه .

التفسير

٢٤ - (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

لما ذكر الله أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض بقوله : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ »[1] أمر - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ بأن يقرر المشركين بقوله : (مَن يَرْزُقُكُمْ) ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله : (قُلِ اللهُ) أى : الله يرزقكم ، وذلك للإشعار بأنهم مقرون بقلوبهم إلَّا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذى تمكن فى صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال : فما بالكم لا تعبدون من يرزقكم ؟ وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ؟ وقد كانوا يقرون بألسنتهم مرة ، ويتلعثمون مرة ، عنادًا وإصرارًا وحذرا أن تلزمهم الحجة ، ونحوه قوله - عز وجل - : « قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا »[2] :

أى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين إلزاما لهم : من يرزقكم من السموات والأرض ، فينزل لكم الأمطار ويسوق لكم الأرزاق زرعاً نضيرًا ، وثمرًا وفيرًا ، وغير ذلك من سائر الأرزاق ظاهرها وباطنها ، وقل لهم بعد الإلزام والإفحام : (وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى : وإن أحد الفريقين منا معاشر الموحدين ، ومنكم أيها المشركون لمتصف بأحد الأمرين : الاستقرار على الهدى ، والتمكن من الحق ، أو الانغماس فى الضلال البيِّن الواضح .

وهذا من الكلام المنصف الذى يقول كل من سمعه موافقاً أو مخالفاً - يقول - لمن خوطب به : لقد أنصفك صاحبك .

---

(١) سورة سبأ من الآية : ٢٢

(٢) سورة الرعد ، من الآية : ١٦

وفى ذكره بعد ما تقدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو فى الضلال المبين ؛ لأن التعريض والتورية أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض وغلبة الخصم ، فكأنه قال لهم : أنتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ، ومثله قول حسان - شاعر رسول الله - يخاطب أبا سفيان بن حرب ، وكان قد هجا النبي قبل أن يسلم :

أتهجوه ولست له بكفء ؟ فشركما لخيركما الفداء

وخولف بين حرفى الجر الداخلين على الحق والضلال للدلالة على استعلاء صاحب الهدى ، وتمكنه واطلاعه على ما يريد ، كالواقف على مكان عال أو الراكب على جواد يركضه حيث شاء ، بخلاف صاحب الضلال فهو منغمس فيه ، حتى كأنه فى مهواة موحشة لا يدرى أين يتوجه .

٢٥ - (قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

المعنى : قل لهم - أيها الرسول - : لا تُسألون عما اقترفنا من آثام ، وارتكبنا من ذنوب ، ولا نُسأل عما تعملون من شرور ومعاصٍ وكبائرَ ، وهذا أدخل فى الإنصاف وأبلغ فيه ؛ حيث عبر عن الهفوات التى لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن الكبائر ، وأسند إلى المؤمنين فقيل : (لَاتُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا) وعن الكبائر من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات ، وأسند إلى المخاطبين ، فقيل : (وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

وذكر ابن كثير أن معنى الآية : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله - تعالى - وإلى توحيده ، وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن برآءُ منكم وأنتم برآءُ منا ، كما قال - تعالى - : « وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ »[1] .

---

(١) سورة يونس الآية : ٤١

٢٦ - (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) :

قل لهم - أيها النبي ، بعد أن تبين الحق من الباطل - قل لهم : يجمع بيننا ربنا يوم القيامة عند الحشر والحساب، ثم يقضى بيننا بالحقّ ، ويفصل بالعدل ، فيدخل المحقين الجنة ، والمبطلين النار ، وهو القاضى الواسع العليم ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنُّصرة والسعادة الأَبدية .

٢٧ - (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ...) الآية :

استفسار عن شبهتهم بعد إلزامهم بالحجة ، زيادة فى تبكيتهم ، والمراد : قل لهم : أعلمونى بالحجة والدليل فى أى شىء كانت الشركة ؟ هل شاركت الأَصنام فى خلق شىء ؟ فبينوا ما هو وإلا فَلِمَ تعبدونها ؟

وقيل : (رأى) بَصَرِيَّةٌ ، والمراد : أرونيهم لأَنظر بأَى صفة ألحقتموها بالله - عز وجل - الذى ليس كمثله شىءٌ فى استحقاق العبادة ، والغرض إظهار خطئهم العظيم .

وقال بعض الأَجِلَّة : لم يُرِدْ من « أَرُونى » حقيقته ؛ لأَنه ﷺ كان يرى معبوداتهم ويعلمها ، فهو تمثيل ، والمعنى : ما زعمتموه شريكاً إذا برز للعيون - وهو خشب وحجر - تمت فضيحتكم وهذا كما تقول للرجل الخسيس الأَصل : أرنى أَباك الذى فاخرت به فلاناً الشريف ، ولا تريد حقيقة الرؤية وإنما تريد تبكيته وتحقيره .

(كَلَّا) : ردع لهم عن زعم الشركة ومذهبهم فيه ،أى : ليس الأَمر كما زعمتم فليس له نظير ولا شريك ولا نديد ولاعديل ،وقد نبه على فحش غلطهم وأنهم لم يقدروا الله حق قدره بقوله :

(بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أى : بل هو الله الموصوف بالغلبة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، فأَين شركاؤُكم - التى هى أخس الأَشياء وأذلها - من صاحب هذه الرتبة العالية ؟ !

(وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً) أى : إلّا إرسالة عامة للناس جميعا ، من الكف ، فإنها إذا عمتهم فقد كفّتهم أن يخرج منها أحد ، قال الزجاج : أرسلناك جامعاً للناس فى الإبلاغ « فهى حال من الكاف ، والتاءُ للمبالغة » .

(الْوَعْدُ) المراد بالوعد : اليوم الموعود للجزاء .

(مِيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) أى : لكم ميعاد يوم مؤجل محدد إذا جاءَ لا يؤخر ساعة ولايقدّم .

التفسير

٢٨ - (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

يقول الله - تعالى - لعبده ورسوله محمد ﷺ : وما أرسلناك إلا جامعاً للمكلفين من الناس ، مبشرًا من أطاعك بالجنة ، ومنذرًا من عصاك بالنار ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون صدقك فى دعوتك ، وعموم رسالتك للناس جميعاً فى شتّى أنحاء الأرض ، فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم عليه من الْغَىِّ والضلال .

ومثل هذه الآية فى عموم دعوته قوله - تعالى - : « إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً »[1] .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٥٨

وقوله ـ جل شأنه ـ : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا »[1] .

ومثل ذلك ما ورد فى الصحيحين مرفوعاً عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ا هـ : ابن كثير ، وفى الصحيح ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » قال مجاهد : يعنى الجن والإنس ، وقال غيره : يعنى العرب والعجم ، والكل صحيح ، وقال محمد بن كعب فى قوله ـ تعالى ـ : (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) يعنى إلى الناس عامة .

واعلم أن رسالته ﷺ إلى الجن ثابتة فى مواضع أُخَرَ وبخاصة فى سورة الجن ، وسيأتى الحديث عن ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

٢٩ ـ (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

ويقول الكافرون من فرط جهلهم وعظيم غَيِّهم استبعادًا لقيام الساعة ، واستهزاءً باليوم الموعود للجزاء ثواباً أو عقاباً ـ يقولون ـ متى هذا اليوم الموعود بالجزاء الأُخروى ، إن كنتم صادقين فى وعدكم به فأخبرونا ، قالوا هذا مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين به ، والمراد بصيغة المضارع (يقولون) الاستمرار التجددى ، وقيل : عبر بها استحضارا للصورة الماضية لغرابتها ، والأصل : (قالوا) .

٣٠ ـ (قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) :

أى : قل لهم ـ أيها النبى ـ : لكم ميعاد يوم عظيم محدد فإذا جاء لا يؤخر ساعة ولا يقدم ، ولما كان سؤالهم عن الوقت إنكارا وتعنتا لا استرشادا جاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجىء السؤال ، وهو أنهم مرصودون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخرًا عنه ولا تقدما عليه ، وهو يوم القيامة الذى ستبين الآيات التالية أحوالهم فيه .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ١

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : المشركون من أهل مكة .

(بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ) أى :بالذى تقدمه من الكتب السماوية : كالتوراة والإنجيل الدالين على البعث .

(الظَّالِمُونَ) : المنكرون للبعث ، ظلموا أنفسهم بكفرهم به .

(مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ) : محبوسون فى موقف الحساب .

(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) : يتحاورون ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب .

(الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) : فى الدنيا من الكافرين وهم الأتباع .

(الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : الرؤساءُ والقادة .

(لَوْلَآ أَنتُمْ) : لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان .

(لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) : باتباع الرسول .

(أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ) : استفهام بمعنى الإنكار، أنكروا أن يكونوا هم الذين صدوهم عن الإيمان وردوهم عنه .

(بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ) : آثمين بإصراركم على الكفر .

(بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : بل صدَّنا مكركم بنا وخداعكم لنا فى الليل والنهار ، والمكر فى لسان العرب : الاحتيال والخديعة .

(أَندَادًا) : شركاء ونظراء فى العبادة ، جمع نِدٍّ ، وهو الشريك والمثيل ، يقال : فلان نِدُّ فلان ، أى : مثله .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) أى : أضمر الفريقان الندامة على مافعلا من الضلال والإضلال ، وأخفاها كل عن الآخر حين عاينوا العذاب أو أظهروها ، فإنّ (أسرَّ) من الأضداد .

(الْأَغْلَالَ) : جمع غُل ، وهو القيد يوضع فى العنق ، وقد نطلق الأغلال على السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم .

التفسير

٣١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) :

يخبر الله - تعالى- عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالنبي وبالقرآن ، وبما أخبر به من أمر المعاد ، وعدم الإيمان بالذى سبقه من كتب الله التى نزلت على الأنبياء السابقين تتحدث عن عبادته وحده ، وعن المعاد والثواب والعقاب ، يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ فى كتبهم ، فأغضبهم ذلك وقرنوا بالقرآن جميع ما تقدمه من كتب الله - عز وجل - فكفروا بها جميعاً .

وقيل : الذى بين يديه هو يوم القيامة ، أى : أنهم كفروا بالقرآن وبما جاء به من البعث والجزاء ، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم فى الآخرة فقال لرسوله ، أو لكل مخاطب : ولوترى فى الآخرة مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجّهم وهم يتحاورون ويتراجعون القول بينهم باللوم والعتاب ، بعد أن كانوا فى الدنيا أخلاء متناصرين ، وجواب (لو) مقدر ، أى : لرأيت أمرًا هائلا فظيعاً مخيفاً ، ثم ذكر ما يرجعونه من القول فقال : (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) : استئناف لبيان تلك المحاورة ، أى : يقول المستضعفون من الأتباع للمستكبرين من الرؤساء والقادة الذين اتبعوهم فى الغى والضلال : لولا أنتم صددتمونا عن الهدى ومنعتمونا من الإيمان ، وحُلْتُم بيننا وبين الحق لكنا اتبعنا الرسول ، وآمنا بما جاء به فنجونا من العقاب .

٣٢ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ) :

استئناف بيانى ، كأنه قيل : فماذا قال الذين استكبروا حين اعترض عليهم الأتباع ووبخوهم ؟ فقيل من جهتهم : أنحن صددناكم عن الهدى ... إلخ ، أى : لسنا نحن الذين حُلْنا بينكم وبين الإيمان وصددناكم عنه ، ومنعناكم منه بعد إذ صممتم على الدخول فيه وصحت نياتكم فى اختياره ، بل أنتم منعتم أنفسكم حظها ، وآثرتم الضلال على الهدى ، وأطعتم آمِرَ الهوى دون آمِرِ الهُدى ، فكنتم مجرمين مشركين مصرين على الكفر باختياركم لا لقولنا وتسويلنا ، ونحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل

ولابرهان ، وخالفتم باختياركم الأدلة والبراهين التى جاءت بها الرسل .

٣٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

لما أنكر المستكبرون بقولهم : (أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ . . .) إلخ أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين وردوا عليهم بقولهم: « بَلْ أَنتُم مُّجْرِمُونَ » يريدون أن ذلك بكسبهم واختيارهم - لما أنكروا وقالوا ذلك - رد عليهم المستضعفون بقولهم : (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ) : كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهتكم ؛ لأن الذى صدنا عن الهدى وصرفنا عن الحق خديعتكم ووسوستكم لنا فى الليل والنهار ، واحتيالكم علينا حين كنتم تطلبون منا أن نكفر بالله ونجعل له شركاء ونظراء فى العبادة ، وزينتم لنا الشرك وحسنتم لنا الكفر وخدعتمونا بأننا على هدى ، فإذا جميع ذلك خداع وكذب وباطل . (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) أى : وأضمر الظالمون من الفريقين : - المستكبرين والمستضعفين - الندامة على ما كان منهم فى الدنيا من الضلال والإضلال فى جانب المستكبرين ، ومن الضلال والانقياد إلى المضلين فى جانب المستضعفين حينما رأوا العذاب وشاهدوه ؛ لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق ، واشتغلوا عن إظهار الندامة بهول العذاب ، أو لأنهم علموا أن لافائدة من إظهارها ، وقال الزمخشرى وغيره : أسروا الندامة بمعنى أظهروها ، فإن (أَسَرَّ) من الأضداد ؛ إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب ، فمعنى أسرَّهُ : جعله سرا ، أو : أزال سره ، « وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أى : وجعلنا السلاسل التى تجمع أيدى الكفار فى أعناق الكافرين ، والمراد بالكفار : المتكبرون والمستضعفون جميعاً ، والأصل (فى أعناقهم) إلا أنه أظهر كفرهم للتنويه بذمهم ، والتنبيه على موجب تلك الأغلال . (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى : ما يستحق هؤلاء جميعاً إلا جزاء ما كانوا يعملون من الشرور والآثام فى الدنيا .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(مُتْرَفُوهَا) : أصحاب النعمة والرياسة . (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) لا نؤمن به ولا نتبعه (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) : قالوا ذلك لاعتقادهم أن الله أكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الآخرة ، أو لإنكارهم عذاب الآخرة . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه امتحاناً . (وَيَقْدِرُ) يُضيِّقه ابتلاءً . (زُلْفَىٰ) الزلفَى ، والزلفة : القربة ، وهى كالقربى (جَزَآءُ الضِّعْفِ) : الثواب المضاعف ، والضِّعْفُ : الزيادة . (وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ) غرفات الجنة : منازلها العالية .

التفسير

٣٤ - (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ) :

هذه الآية مسوقة لتسلية رسول الله عما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه وكفرهم به وتكذيبهم وعداوتهم له - عليه السلام - وليتأسى بما حدث لمن قبله من المرسلين حيث كذبهم المترفون .

والمعنى : وما أرسلنا فى قرية من القرى رسولا يدعو أهلها إلى الحق ، ويأمرهم بالإيمان

ويخوفهم عاقبة المخالفة والخروج على أوامر الله إلا قال مترفوها : (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) أى : إنا بما جئتم به من التوحيد وغيره مكذبون لا نؤمن به ولا نتبعه ، وإنما كان التكذيب طبيعة المترفين وديدنهم لما شغلوا به من زخرف الدنيا وبهجتها ، وما غلب على قلوبهم منها ، فهم منهمكون فى الشهوات ، ولأن الأديان جميعها جاءت تقرر حقوق الإنسان من حرية ومساواة وعدالة اجتماعية وهذه كلها أمور ليست فى مصلحتهم ، كما أن الأنبياء جاءوا بمناهج من السماء ، فيها أوامر ونواه ، واتِّبَاعُ الأنبياء ، والإيمانُ بدعوتهم يتطلب فعل الأوامر واجتناب النواهى ، وهذا يَشُقُّ على المترفين أُولِى النعمةِ والثروة والرياسة وأصحاب الرفاهية ، ولهذه الحقيقة كان على رأس المكذبين لدعوات المرسلين ومناهج السماء المترفون الغارقون فى الملاهى والشهوات من الرؤساء والجبابرة .

أما الفقراءُ فإن قلوبهم ـ لخلوها من ذلك ـ أقبلُ للخير ، ولأن رسالات الأنبياء تحررهم من الأغلال وذل الإسار لكبرائهم ، وتقرر لهم حقوقهم ، وتحقق لهم مطالبهم ـ لهذا كله ـ كانوا أشد الناس حُبًّا لها وإقبالا عليها وتعلقا بها وتفانيا فى نشرها ، ولذا تراهم أكثر أتباع الأنبياء عليهم السلام .

ولقد قرر القرآن هذه الحقيقة ، وحكى عن قوم نوح قولهم له : « أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ »[1] قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رزين قال : كان رجلان شريكان ، خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينُهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دُلَّنى عليه ، ـ قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب ـ قال : فأتى النبى ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : أدعو إلى كذا وكذا . قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبى الا اتبعه أراذلُ الناس ومساكينُهم ، قال : فنزلت هذه الآية : (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) : قال : فأرسل إليه النبى ﷺ : إن الله ـ عز وجل ـ قد أنزل تصديق

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١١١

ما قلت . وكذلك قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل : « سألتك : أضعفاءُ الناس اتَّبَعُوه أم شرفاؤهم ؟ فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل » اهـ : ابن كثير ج ٣ ص ٥٤٠ وقال - تبارك وتعالى - إخبارا عن المترفين المكذبين :

٣٥ - (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

هذه الآية تحكى ما أجاب به المترفون رسلهم حين دعوهم إلى الحق .

والمعنى: وقال المترفون لرسلهم متباهين : نحن فُضِّلْنَا عليكم بالأموال والأولاد فى نعمة لا تشوبها نقمة ، وهو دليل كرامتنا على الله - عز وجل - ورضاه عنا ، فلو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعوننا إلى تركه مخالفا لرضا الله لما كنا فيما كنا فيه من النعمة ، وهكذا قاسوا أمورَ الآخرة على أُمور الدنيا ، وزعموا أن المنعم عليه فى الدنيا منعمٌ عليه فى الآخرة ، وأنهم لو لم يكونوا كرماءَ على الله لما وسع عليهم ، ولولا أن المؤمنين هانوا عنده لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا : (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) : أرادوا أنهم أكرمُ على الله من أن يعذبهم نظرا إلى أحوالهم فى الدنيا ، وهيهات لهم ذلك : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ » (١) .

٣٦ - (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

قل - أيها النبى - لمن يزعم أن الغنى واليسار وكثرة المال والعيال دليل الكرامة والرضا - قل لهم - ردا عليهم ، وحسما لمادة طمعهم الكاذب ، وتحقيقاً للحق الذى يدور عليه أمر الكون : إن ربى ومالك أمرى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسع له ، ويضيق على من يشاءُ أن يضيق عليه ، فربما يوسع - سبحانه - على العاصى ، ويضيق على المطيع ، وربما يعكس الأمر ، وربما يوسع عليهما معا ، وقد يضيق عليهما معًا ، وقد يوسِّع على شخص مطيع أو عاصٍ تارةً ، ويضيّق عليه أُخرى ، يفعل ذلك حسبما تقتضيه مشيئته - عز وجل - المبنية على الحكمة التامة والحجة القاطعة ، فلو كان البسط دليل الإكرام والرضا ، لاختص به المطيع ، وكذلك لو كان التضييق دليل الإهانة والسخط ، لاختص به العاصى ،

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٥٥ ، ٥٦

والمراد : منع كون ذلك دليلا على ما زعموا ، لاستواء المعادى والموالى فيه . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) : ذلك لأنهم لا يتأملون ، فمنهم من يزعم أن مدار البسط : الشرفُ والكرامة . ومدارُ التضييق : الهوان والحقارة كهؤلاءِ المترفين المكذبين ، وهم لا يدرون أن الأول كثيرا ما يكون للاستدراج ، والثانى قد يكون للابتلاء ورفع الدرجات ، ومنهم من تحير واعترض على الله - تعالى - فى البسط على أناس ، والتضييق على آخرين حتى قال قائلهم :

كم عاقلٍ عاقلٍ أَعْيَتْ مذاهبُه وجاهلٍ جاهلٍ تَلْقَاهُ مرزوقاً

هذا الذى ترك الأَفهام حائرةً وصَيَّرَ العالمَ النِّحْرِيرَ زِندِيقاً

ولعمرى إن العالم النِّحرير العارف هو الذى يقول :

ومن الدليل على القضاءِ وحكمه بؤسُ اللبيبِ وطِيبُ عيشِ الأَحمقِ

٣٧ - (وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) :

المعنى : وليست هذه الأَموال والأَولاد دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم ، وليست أَموالكم ولا أَولادكم بالخصْلة أَو المزِّية التى تقربكم عندنا قربة ، لكن من آمن وعمل صالحا . فإِيمانه وعمله يقربانه منا ، فأُولئك لهم الثواب المضاعف ، فيجزون على الحسنة بعشر أَمثالها أَو بأَكثر إِلى سبعمائة ضعف ، وهم فى غرفات الجنة ومنازلها العالية آمنون من كل بأْس وخوف وأَذى وحرمان ، ومن كل شيءٍ يحذر منه ، روى مسلم عن رسول الله ﷺ بسنده قال : « إِن الله تعالى لا ينظر إِلى صوركم وأَموالكم ولكن إِنما ينظر إِلى قلوبكم وأَعمالكم »[1] .

---

(١) ابن كثير .

(وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(يَسْعَوْنَ فِىٓ آيَـٰتِنَا) أى : يمشون مسرعين فى القرآن بالرد له والطعن فيه (مُعَاجِزِينَ) : زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله عليهم . (فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) أى : عذاب فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها ، لا يفلتون من العذاب . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ): يوسعه امتحاناً . (ويَقْدِرُ لَهُ) : يضيقه له ابتلاءً (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ) فى الخير .

(فَهُوَ يُخْلِفُهُ): يعطى بدله . (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أى : وهو خير المعطين ، وإطلاق الرازقية على غيره ـ تعالى ـ مجاز ؛ لأنه موصل للرزق ، فهو رازق صورة ، وقال الآمدى : إن المعنى : خير من تسمى بهذا الاسم وأُطلق عليه حقيقة أو مجازا .

التفسير

٣٨ ـ (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءايَـٰتِنَا مُعْجِزِينَ أُولٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) :

والذين يسعون فى معارضة آياتنا بالرد عليها محاولين إبطالها والنيل منها والطعن فيها ، وتعجيز أنبيائنا عن تبليغها وإيصالها للناس ليعملوا بها وينتفعوا بهديها ، ويسعون فى الصد عن سبيل الله واتباع رسوله ، والتصديق بآياته زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله ـ تعالى ـ أو أنبيائه عليهم أولئك الذين يرتكبون ما سبق فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها ، لا يُفلتون ولا يجديهم نفعاً ما عوَّلوا عليه ، وجميعهم مجزيون بأعمالهم .

٣٩ - (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

قل أيها النبى : إن ربى يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء ، فأنفقوا فى سبيل الله وتقربوا لديه - عز وجل - بأموالكم (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ) أى : ومهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه فهو يخلفه عليكم ، أى : فهو يعوض عليكم ، لا معوض سواه ، إما عاجلا بالمال فقد جاء فى الحديث القُدُسى يقول الله تعالى : « أَنفِق أُنْفِق عليك » أو يعوضه بالقناعة التى هى كنز لا ينفد ، وإما آجلا بالثواب الذى كل خَلَفٍ دونه ،وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : « اللهم أعط ممسكا تلفا » ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقاً خلفاً[1] » (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) قال العلامة الزمخشرى : خير الرازقين وأعلاهم رب العزة ؛ لأن كل من رزق غيره من سلطان يرزق جنده ، أو سيد يرزق عبده ، أو رجل يرزق عياله ، فهو من رزق الله أجراه الله على أيدى هؤلاء ، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق .

وقال القرطبى : ما أنفق فى معصية :فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البُنْيان فما كان منه ضروريا يَكِنُّ الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾)

(١) رواهما مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - قرطبى .

المفـردات :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) أى : يجمعهم للحساب عابدين ومعبودين .

(أَهَٰؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)أى :أهؤلاءخصوكم بالعبادة دونى ؟ (سُبْحَانَكَ) :تنزيها لله عن الشرك . (أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ) أى : أنت ربنا الذى نواليه ونطيعه ونخلص فى العبادة له . (يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى : الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله .

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ) أى : لا يملك المعبودون للعابدين .

(نَفْعاً): شفاعة ونجاة .

(وَلَا ضَرًّا) :عذاباً وهلاكاً. (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا)أى : ظلموا أنفسهم وهم المشركون .

التفسير

٤٠ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) :

واذكر- أيها النبى - يوم يحشر الله المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ، وحين يعظم بالناس الحال ، ويشاهدون من الأهوال ما لا يحيط به المقال ، ثم يقول الله للملائكة - أمام من كانوا يعبدونهم - : أهؤلاء خصوكم بالعبادة دونى؟ وهذا الكلام مع كونه خطابا للملائكة ، فهو تقريع للمشركين وتبكيت لهم ، وإقناط لهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة الملائكة- عليهم السلام - وليس للاستفهام والاستعلام ؛ لعلمه - سبحانه - بما تجيب به ، وهو على نهج قوله - تعالى - لعيسى- عليه السلام - : «أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ [1] » وقد علم - سبحانه - كون الملائكة وعيسى منزهين بُرَآءَ مما وجه إليهم من موضوع السؤال الوارد على سبيل التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون تقريعهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وَهَوَانُهُمْ ألزم ، وتخصيص الملائكة بالذكر ؛ لأنهم أشرف شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم ، ولأنهم الصالحون للخطاب ، ولأنه إذا بطلت عبادتهم ، فعبادة غيرهم أولى بالبطلان ، وذكر ابن الوردى فى تاريخه أن سبب حدوث عبادة الأصنام

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١١٦

فى العرب أن عمرو بن لحى مر بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام ، فسألهم ؛ فقالوا له : هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية ، فنستنصر بها ونستقى ، فتبعهم ، وأتى بصنم معه إلى الحجاز وسَوَّلَ للعرب عبادته فعبدوه . واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام .

٤١ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) :

استئناف بيانى : كأنه قيل : فماذا قال الملائكة حينئذ ؟ فقيل : قالوا - منزِّهين الله - سبحانك تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ، أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتَهم من الرضا بعبادتهم لهم ؛ لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافيةً لذلك ، ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم : (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى : الشياطين - كما روى عن مجاهد - حيث كانوا يطيعونهم فيما يسولون لهم من عبادة غير الله ، فهم خاضعون لتأثير الشياطين الذين زينوا لهم الشرك .

وقيل : صورت الشياطين لهم صورة قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها ، وقال ابن عطية : فى الأمم السابقة مَنْ عَبَدَ الجن ، وفى القرآن ما يشير إلى ذلك ، قال - تعالى -: « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ »[1] .

٤٢ - (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

أى : فاليوم لا يملك بعض المعبودين لبعض العابدين نفعًا بالشفاعة ، ولا ضرًّا بالعذاب ؛ لأن الأمر فى ذلك اليوم لله وحده ، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد ، فلا نافع ولا ضارَّ إلا اللهُ وحدَه .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠٠

وهذا ما يقال للملائكة ـ عليهم السلام ـ من قبل الله عند جوابهم بالتبرؤ عما نسبه إليهم المشركون ، يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم أمام زاعمى عبادتهم ، وتنصيصًا على ما يوجب خيبة رجاء العابدين فيهم .

وقيل : إن نسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم ، كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم .

والمراد باليوم يومُ القيامة ، وتقييد الحكم به مع ثبوته على الإطلاق ، لانعقاد رجاء المشركين على تحقق النفع يومئذ « وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » وهم المشركون حيث ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان: « ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » فى الدنيا ،يقال لهم ذلك توبيخا وتقريعاً.

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ج وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ج وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ج وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ج فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾)

المفـردات :

(آيَاتُنَا) : القرآن . (قَالُوا مَا هَذَا) : يعنون رسول الله التالى للآيات . (يَصُدَّكُمْ) : يصرفكم ويمنعكم . (عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ) : من الأصنام . (وَقَالُوا مَا هَذَا) : يعنون القرآن المَتْلُوَّ . (إِفْكٌ مُّفْتَرًى) : مختَلَقٌ (لِلْحَقِّ) : أمر النبوة كله ، أو دين الإسلام . (سِحْرٌ مُّبِينٌ) : ظاهر لمن تأمله أنه سحر . (كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا) : يقرأُونها (مِعْشَارَ) معشار الشىء : عشره ، وقيل : المعشار : عشر العشر ، وقيل المعشار : عشر العُشَير ، والْعُشَيرُ هو عشر العشر ، قال الماوردى : وهو الأَظهر ؛ لأَن المراد المبالغة فى التقليل . ا هـ : قرطبى . (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) : فكيف كان إنكارى لهم بالتدمير ؟ والاستفهام للتهويل ، أى : كان إنكارى هائلا شديدا .

التفسـير

٤٣ - (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

هذا بيان لبعض آخر من كفرهم ، أى : وإذا تتلى عليهم بلسان رسول الله ﷺ آياتنا الناطقة بأَحقية عقيدة التوحيد وبطـلان الشرك ، يسمعونها من فمه الشريف ، قالوا : ما هـذا ؟ - يعنون رسول الله التالى للآيات الواضحات - إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم من الأَصنام ، ويصرفكم عنه ، ويمنعـكم منه ، فيجعلكم من أتباعه من غير أن يكون له دين إلٰهى ، وإضافة الآباءِ إلى المخاطبين لتحريك عروق العصبية منهم ، مبالغة فى تحبيب الشرك إلى نفوسهم ، وتثبيتهم عليه ، وتنفيرهم عن التوحيد ، وقالوا : ما هذا - يعنون القرآن المتلو عليهم - إلا كذب مختلق ومفترى بإسناده إلى الله - عز وجل - وأشاروا إلى القرآن بهذه الإشارة للنيل منه - قبحهم الله - وأنّى لهم ذلك وهو الكتاب الكامل (لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » كما أشاروا إلى الرسول بمثلها فى قولهم الذى حكاه القرآن عنهم بقوله : (قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ) للغض من شأْنه ولن يستطيعوا ، فهـو ﷺ خير

المرسلين ، سيد الأولين والآخرين ، وقال الذين كفروا للحق ، أى : لأمر النبوة كله ، أو القرآن حين جاءهم من غير تدبر ولا تأمل فيه – قالوا – : إن هذا إلا سحر مبين ظاهر لكل من تأمل فيه

٤٤ – (وَمَا ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ) :

أى : وما آتيناهم كتبا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ، كما قال – عز وجل – « أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ »[1] ولا أرسلنا إليهم قبلك من نذير ينذرهم بالعقاب على شركهم ، وفى وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لا ملة لهم ، وليس لهم عهد بإنزال كتاب ، ولا بعثة رسول ، فيه ما فيه من التهكم بهم ، كما قال – تعالى – : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ »[2] فليس لتكذيبهم وجه ولا شبهة .

٤٥ – (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى : وكذب الذين تقدموهم من الأمم أنبياءهم كما كذبوا ، وما بلغ المشركون المكذبون من قومك عُشْرَ ما آتينا هؤلاءِ السابقين : من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال ، فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى وعاقبة إنذارى بالتدمير والاستئصال ولم يُغْن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون ، فيلحذروا من مثله ؛ لئلا ينالهم ما نالهم ويصيبهم ما أصابهم ، فمن سنن الله أن ينصر أولياءه ويؤيد أصفياءه ويدحر مخالفيه وأعداءه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٣٥

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٢١

* (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ) : أذكّركم وأحذركم بكلمة واحدة هى :

(أن تَقُومُوا لِلَّهِ [1]) قيامهم لله : اهتمامهم بالتفكير لوجه الله فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ وليس المراد به ما يقابل القُعُود ، من قولهم : قام فلان بالأمر ، أى : اهتم به حتى أتمه .

(مَثْنَى وَفُرَادَى) أى : اثنين اثنين وواحدًا واحدًا .

(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) أى : يتفكر الاثنان كلاهما مع الآخر على سبيل التشاور والتفاهم للوصول إلى الحقيقة ، ويتفكر كل واحد فى نفسه بعد التشاور مع صاحبه .

(مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ) : جملة مستأنفة للتعليل ، أى : ثم تتفكروا فيما دعوتكم إليه لأنه ليس بصاحبكم جنون . (إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ) أى : ما محمد إلا رسول مُنْذِر لكم .

(مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) أى : لم أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا ، فالأجر لكم إن آمنتم بالله ورسوله .

(إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ) أى : ما أجرى إلّا عليه سبحانه .

---

(١) أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر تقديره : قيامكم لله ، وهو بدل من لفظ (واحدة) .

التفسير

٤٦ - (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَابِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) :

بين الله فى الآيات السابقة أن الذين كفروا من قريش لمَّا جاءَهم الرسول برسالته كذبوه وقالوا : ما هذا إلَّا إفْك مفترى وسحر مبين ، كما أنهم كانوا يصفونه بالجنون ، وقد بين الله خطأَهم بقوله : « وَمَآ آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ » أى : أنه ليس عندهم علم عن طريق الوحى جاءَهم على لسان رسول قبلك ، لكى يعترضوا به على رسالتك ويردوها ، وأنه كان ينبغى لهم أن يُقْبلوا عليك ويؤيدوك فى رسالتك ، بدلًا من تكذيبهم إيَّاك ، وإعراضهم عن الكتاب الذى أيدك الله به وهو الحق المبين ، فى حين أنك فخرهم وعزهم ، وأنت الرسول العربى الوحيد الذى جاءَهم ، وجاءَت هذه الآية أمرًا للنبى ﷺ بمواصلة وعظهم وتذكيرهم لعلهم يهتدون ، ومعلوم أن العرب - مع إشراكهم - كانوا يعتقدون أن الله هو خالقهم ، وأنهم ما يعبدون آلهتهم إلَّا لتقربهم إلى الله زُلْفى ، ولهذا طلب إليهم فى هذه الآية أن يخلصوا فى تفكيرهم وبحثهم عن الحق من أجل الله الذى يقرون بأُلوهيته وربوبيته لأَربابهم .

والمعنى : قل - أيها الرسول - لهؤلاءِ الكفار : ما أنصحكم إلَّا بخصلة واحدة ، هى أن تتركوا التجمع فى الرأى القائم على التعصب لعقائد أصولكم ، وأن تنهضوا متفرقين : اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا ، فالاثنان يشاور كلاهما الآخر ويتفاهم معه ؛ فإنه أعون على الوصول إلى الحق من الفكر الواحد ، فإذا انقدح الرأى بين الاثنين ، عاد كلاهما إلى نفسه ، للموازنة والبت فيما جاءَكم به محمد ؛ فإنه ليس بصاحبكم هذا جنون ، فقد عرفتموه بالعقل الراجح والفكر الرشيد ، فلا يعقل أن يتصدى لأَمر خطير تعتريه صعاب لا نهاية لها إلَّا وهو على نور من ربه ، وقد أيده الله بالقرآن وسواه من المعجزات ، ما محمد إلَّا محذر لكم قُبَيلَ عذاب شديد - هو عذاب الآخرة - فقد بعث قريبًا من الساعة ، قال ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ ، كَهَاتَيْنِ » مشيرًا إلى قربها بضم أصبع السبابة إلى الوسطى ، إيذانًا

بالفرق الصغير بينهما ، ولهذا كان ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، وقربه ﷺ من الساعة نِسبِىٌّ ، فالأرض مخلوقة منذ ملايين من السنين لا يعلمها إلَّا علام الغيوب .

٤٧ - (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

لم يحدث أن النبى ﷺ سأَلهم على تبليغ الرسالة أجرًا ، قال - تعالى - فى سورة يوسف : « وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ » الآية (١٠٤) . وهذه الآية من هذا القبيل ، تنفى أَوَّلًا نفيًا صريحًا أنه سأَلهم أجرًا ، وتثبت أن الأَجر لهم إن آمنوا ، وتبين أن أجره فى تبليغ الدعوة من الله وليس منهم .

ومعنى الآية على هذا الوجه : قل - أيها الرسول - للمشركين من قومك : لم أسأَلكم على إيمانكم برسالتى أجرًا فالأَجر لكم[1] من الله حين تؤمنون ، وما أجرى فى تبليغ الحكم إليكم إلَّا على الله وحده وهو على كل شىء رقيب وحاضر ، فلا يخفى عليه عملى وعملكم ، وسيجزى كل امرئٍ حسب عمله ونيته .

ويقول الزمخشرى فى تفسيرها : (فَهُوَ لَكُمْ) جزاءُ الشرط الذى هو قوله : (مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ) وتقديره : أى شىءٍ سأَلتكم من أجر فهو لكم ، كقوله - تعالى - : « مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا . . . الآية » ، وفيه معنيان :

(أحدهما) : نفى سؤاله الأَجر رأْسًا ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتنى شيئًا فخذه - وهو يعلم أنه لم يعطه شيئًا - ولكنه يريد به عدم الأَخذ لتعليقه الأَخذ على ما لم يحدث وهو الإعطاء .

(والمعنى الثانى) : أنه يريد بالأَجر ما أراد فى قوله - تعالى - : « قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » ، وفى قوله : « قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

---

[1] فنى الآية من وجوه البلاغة (الاستخدام) وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر ، فلفظ (الأجر) نفى أولا أنه طلبه منهم ، ثم أعاد الضمير عليه بمعنى آخر فى قوله : (فهو لكم) وهو الأجر من الله ، أى : فأجر الإيمان من الله لكم ، ثم بين صراحة أن أجره على الله بقوله : (إن أجرى إلا على الله) .

إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » لأن اتخاذ السبيل إلى الله نفعه يعود إليهم ، وكذلك المودة فى القربى ، فقرابته قرابتهم ، وكلاهما أمر معنوى لا مال فيه . انتهى بتصرف يسير .

(قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(يَقْذِفُ بِالْحَقِّ) : يلقيه وينزله ليرمى به الباطل .

(وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) أى : لم تعد للباطل كلمة يبدأ بها أو يعيدها .

(فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى) : فإنما يعود ضرر الضلال عليها .

التفسير

٤٨ - (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

قل - أيها الرسول - : إن ربى ينزل الوحى على من يشاء من عباده ، ويرمى به الباطل فيدمغه ، أو يرمى به إلى أقطار الآفاق ، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام ونشره فهو علام الغيوب .

٤٩ - (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) :

قل : جاء الدين الحق من عند الله ، وَزَهَقَ الباطل واضمحل ، فلم تبقَ للشرك مقالة يرددها بدءًا أو إعادة ، بعد أن علت كلمة التوحيد بنزول القرآن وسطوع البرهان ، وحينما فتح رسول الله مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، دخل المسجد الحرام فوجد أصنام المشركين

حول الكعبة فجعل يطعنها بطرف قوسه وهو يقرأ : « وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » و « قُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » أخرجه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

٥٠ - (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) :

سبب نزول هذه الآية - كما ذكره القرطبى - أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : تركت دين آبائك فضللت ، فنزلت الآية .

وقد أفادت أن ضلال الإنسان يعود ضرره عليه ؛ لأنه باختياره ، حيث لم ينتفع بهدى ربه ، وأن اهتداءه تعود منفعته عليه ؛ لأنه انتفع بهدى ربه ، وهذا الحكم عام لكل مكلف وإنما أمر الله رسوله أن يسنده إلى نفسه ، إما رعاية لسبب النزول ؛ لتكون ردًّا على ما قاله له المشركون ، وإمّا لأن الرسول مع جلالة قدره عند الله ، إذا كان الحكم بقسميه يتناوله ﷺ فإنه يتناول غيره بالطريق الأولى ، والتقابل بين شقى الآية يرجع إلى المعنى ، فكأنه قيل : قل : إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وإن اهتديت فإنما هدايتى لنفسى .

واختير الأسلوب الوارد فى الآية لما فيه من إسناد فضل اهتدائه ﷺ إلى ما أوحاه الله إليه .

ومعنى الآية : قل - أيها الرسول - : إن ضللت عن الحق ، فإنما يعود وبال ضلالى على نفسى ، فإن النفس أمارة بالسوء ، وإن اهتديت إلى الحق فبسبب ما أوحاه إلىَّ ربى وتوفيقه إياى للانتفاع به ، إنه - تعالى - عظيم السمع لكل مسموع ، قريب بعلمه من كل معلوم ، فلا يخفى عليه ضلال الضالين ، ولا اهتداء المهتدين ، وسوف يجازى كل امرىء بما كسبت يداه .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(إِذْ فَزِعُوا) : حين خافوا عند الموت أو البعث .

(مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) : من ظهر الأرض القريب من بطنها ، أو من بطنها القريب إلى المحشر .

(وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) التناوش : التناول السهل ، ـ أى : وكيف يتناولون الإيمان تناولًا سهلًا من مكان بعيد .

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ) : وقد كفروا بمحمد ورسالته قبل حضور الموت .

(وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) : ويتكلمون فى محمد بما لم يظهر لهم من المطاعن .

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) : ومنعوا من الانتفاع بإيمانهم بعد فوات الأوان .

(بِأَشْيَاعِهِمْ) : بأشباههم ، جمع شِيع ، وشِيعٌ جمع شِيعة .

(فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ) : فى شك موقع فى الريبة ، قال ابن عطية : الشكُّ المريب أقوى من مطلق الشك ، وكأنه يريد أن يقول : إن لفظ (مريب) وصف للفظ شك لتقويته ، فإن الريب بمعنى الشك والتهمة ، ومثله قولهم : عجب عجيب ، وشعر شاعر .

التفسير

٥١ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ :

كلام مستأنف يراد به حكاية أحوال الكفار حين يعرفون الحق معاينة وحضورًا ؛ وذلك عند حضور الموت ، أو حين بعثهم من قبورهم لحسابهم بين يدى رب العالمين .

والخطاب فى قوله ـ تعالى ـ : « وَلَوْ تَرَىٰٓ » إمَّا للرسول ﷺ وإمَّا لكل من يصلح للخطاب .

والمعنى : ولو ترى الكفار عند الموت أو البعث من قبورهم ، حين فزعوا وخافوا عاقبة كفرهم بعد أن أدركوا حقيقة أمرهم ، فلا فوت لأحدهم مما نزل به ، وأخذوا من مكان قريب حيث أخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو من بطنها إلى المحشر ، لو تراهم حين ذاك لرأيت أمرًا هائلًا .

والمقصود من وصف مكان أخذهم بالقرب سرعة نزول العذاب بهم ، والاستهانة بهم ، وبهلاكهم ، وإلَّا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عز وجل .

٥٢ ـ ﴿وَقَالُوٓا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ :

وقالوا : آمنا بالله وحده ، أو بمحمد وما جاءنا به من الحق ، وكيف يتأتى لهم تناول الإيمان تناولًا سهلًا من مكان بعيد عن مكان التكليف فلا ينفع إيمانهم عند الموت ؛ لأنه فى حدود الآخرة ، ولا عند البعث لفوات زمان التكليف ومكانه .

٥٣ ـ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ :

هذه الآية جملة حالية من ضمير قالوا فى الآية التى قبلها ، أى : وقال الكفار : آمنَّا بالله أو بمحمد من مكان بعيد بعد فوات الأوان ، وحالهم أنهم قد كفروا به من قبل ـ أى : زمن التكليف ـ وهم أحياء فى الدنيا ، ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر فى الرسول من المطاعن من موضع بعيد عنه ﷺ إن هذا الإيمان لا ينفعهم بعد فوات الأوان وتبدل المكان .

وفسرها الزمخشرى بقوله : « وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » وهو قولهم فى رسول الله ﷺ : شاعر ساحر كذاب ، وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفى ؛ لأنهم لم يشاهدوا فيه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا ، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة عن حاله ؛ لأن أبعد شىء مما جاء به الشعر والسحر ، وأبعد شىء من عادته التى عرفت بينهم وجُرِّبت — أبعد شىء من عادته — الكذب والجنون .

٥٤ — (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ) :

ومنع الكفار من تحقيق ما يحبون من قبول إيمانهم فى الآخرة ، والنجاة من العذاب ، كما فعل بأشياعهم من قبل من كفار الأمم السابقين ، حيث لم يقبل لهم إيمان بعد خروجهم من الدنيا ، إن هؤلاء وأولئك كانوا من تكليفهم فى دنياهم فى شك قوى من صدق رسلهم فيما بلغوهم عن الله — تعالى — : « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ »[1] .

---

(١) سورة غافر : ٨٥

سورة فاطر

هذه السورة تسمى سورة الملائكة ، كما تسمى سورة فاطر ؛ لوجود هذين الاسمين فى الآية الأُولى منها .

مقاصد هذه السورة

بدأت بالحمد لله على بدائع خلقه ، وسوابغ نعمه ، ودعت الناس إلى ذكر نعم الله عليهم والعمل للآخرة ، وبينت أن العزة لله جميعًا ، وأنه « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وعقَّبت ذلك ببيان آياته – تعالى – فى خلق الناس ، وفى تفاوت البحار عذوبة وملوحة وكثرة منافعها ، وفى إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، وعجز الآلهة المزعومة عن نفع عابديها فى الدنيا والآخرة .

وبينت آيات الله فى المطر وآثاره ، وفى اختلاف ألوان الجبال وألوان الناس والدواب والأنعام وأن العلماء هم الذين يخشون ربهم ، وأن قُرَّاء القرآن والصالحين من عباد الله يوفيهم الله أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، ووصفت الجنة ونعيمها الدائم ، والنار وأهلها وعذابهم المقيم ، ثم بينت أن شركاءهم الذين عبدوهم مع الله لا شرك لهم فى خلق السموات والأرض ، وأن الله – تعالى – هو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا : « وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ » ، وبينت أن المشركين أقسموا إن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم : « فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا » ثم ختمت السورة بهذا الإنذار : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾)

المفردات :

(فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مبدعها على غير مثال سبق ، من الفطر وهو الابتداء والاختراع .

(أُولِي أَجْنِحَةٍ) : أصحاب أجنحة ، وهو جمع جناح وهو اليد ، وسيأتى فى التفسير بيان ذلك .

(مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) أى : اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، حسب مراتبهم .

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) أى : يزيد بحكمته فى بعض مخلوقاته ما يشاء من الزيادات على بعض آخر ، وإن اتفقوا فى الجنس والنوع .

(فَلَا مُمْسِكَ لَهَا) : فلا أحد يستطيع إمساكها ومنعها .

(وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ) : وما يمنعه الله ويحبسه فلا أحد يستطيع إطلاقه من بعد إمساك الله له .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى : الغالب .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

الفَطْر فى اللغة أصلًا : بمعنى الشق ، كأنه - تعالى - شق العَدَمَ فأخرج منه السموات والأرض ثم شاع إطلاقه على الابتداء والاختراع .

أخرج عبد بن حميد والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهما عن ابن عباس قال : (كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها - يعنى ابتدأتها -) والمقصود من فطر السموات والأرض أنه - تعالى - أبدعهما من غير مثال سبق .

والملائكة : أجسام نورانية ، خلقهم الله لطاعته : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » والأجنحة فى اللغة بمعنى : الأيدى ، وهى لكل كائن بحسبه ، فاليد فى الإنسان معروفة الشكل ، وفى الطيور لها ريش مصفوف عليها يعينها على الطيران ، وأمَّا فى الملائكة فإنها تتناسب مع نورانيتهم ، والله - تعالى - هو الذى يعلم وصفها وشكلها والمقصود من قوله - تعالى - : « مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » أن الملائكة لا يتساوون فى عدد الأجنحة ، فطائفة بجناحين لكل منهم ، وأخرى بثلاثة أجنحة ، وثالثة بأربعة أجنحة ، ولعل ما فى الآية من باب ضرب المثل ، وأن من الملائكة مَنْ له أكثر من أربعة أجنحة[1] ، وهل المقصود من « مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » أن نصف هذه الأجنحة فى الجانب الأيمن من الملائكة ، والنصف الثانى فى الجانب الأيسر منهم حسب درجاتهم ، أم أن العدد مكرر فى الجانبين ؛ لأن الأجنحة الثلاثة لا تنقسم . كل ذلك من باب الغيب الذى يترك علمه إلى الله وحده .

والمقصود من (الخلق) فى قوله - تعالى - : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » إما الملائكة ، على معنى أنه - تعالى - يزيد فى عددهم أو فى عدد أجنحتهم ما يشاء ، وإمَّا جميع الخلق ، أى : أنه - تعالى - صاحب الإرادة والمشيئة فى جميع خلقه ، فيزيد فيهم صنفا وعددًا وجمالًا وحسنًا ، وعقلًا وعلما وغير ذلك مما يناسب كل صنف حسب حكمته جل وعلا .

---

(١) فقد جاء فى السنة ما يشير إلى ذلك .

ومعنى الآية : كل الثناء بالجميل على الله مبدع السموات والأرض بما فيهما أو فوقهما ، جاعل الملائكة رسلًا وسفراء بين الله وبين أنبيائه ، ليبلغوهم ما أوحاه إليهم ، ورسلًا بينه وبين الصالحين من عباده ، لإلهامهم ما فيه الخير لهم ولغيرهم ، وبينه وبين خلقه ليوصلوا إليهم آثار نعمته أو نقمته ، وقد جعلهم ذوى أجنحة مختلفة ، اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، يزيد فى خلق الملائكة ما يشاءُ عددًا وأجنحة وشكلًا وصورة ، أو يزيد فى جميع خلقه ما يشاءُ نوعًا وعددًا وقوة وعقلًا وعلمًا وحسنًا وغير ذلك من الكمالات أو ما يقابلها ، ممَّا يناسب كل صنف حسب حكمته - جل وعلا - لا يمنعه مانع من تنفيذ مشيئته إن الله على كل شيءٍ قدير .

٢ - (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المراد بفتح الرحمة : إطلاقها ؛ ولذا قوبل بالإمساك ، وفى اختيار لفظ الفتح إشارة إلى أن الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها منالًا ، وتنكيرها لتعميمها فى كل فروعها .

ومعنى الآية : ما يطلق الله للناس أى نوع من أنواع رحمته ، كالعقل والعلم والحكمة والرزق والأمن والصحة وهدوء السر ، فلا أحد يقدر على إمساكه ومنعه عمن كتبه الله له ، وأى شيءٍ يمسكه الله فلا أحد يقدر على إرساله من بعد إمساك الله له ، وهو القوى الغالب فلا يمتنع له مراد ، الحكيم الذى يضع الشيءَ فى موضعه .

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول :

« سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ملءَ السموات وملءَ الأرض وملءَ ما شئت من شيءٍ بعد . اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ » .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن ورَّادٍ مولى المغيرة بن شعبة قال : كتب معاوية إلى المغيرة ابن شعبة : اكتب إلىَّ ممَّا سمعت من رسول الله ﷺ فدعانى المغيرة فكتبت إليه أنى سمعت

رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لَا إِلٰهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وسمعته « ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن وأد البنات وعقوق الأمهات ، ومنع وهات »[1] .

وبعد أن بين الله ـ سبحانه ـ أنه الموجد للملك والملكوت ، والمتصرف فيهما على الإطلاق ، أمر الناس بشكر نعمته فقال :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) : تذكروها وأدوا حقها .

(١) متفق عليه من رواية المغيرة بن شعبة أخرجه البخارى فى « كتاب الأدب » باب : عقوق الوالدين ج ٨ ص ٤ ط / الشعب .

ومسلم فى « كتاب الأقضية » باب : النهى عن كثرة السؤال ... إلخ ج ٣ ص ٣٤١ رقم ١٢ ط / الحلبى مع تقديم وتأخير .

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) : فكيف تصرفون عن عبادة الله - تعالى - وحده .

(وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) : ولا يخدعنكم بالله الشيطان الخداع .

التفسير

٣ - (يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) :

يرى الإمام ابن عباس أن المراد من الناس فى الآية أهل مكة ؛ لأن السورة مكية ، وقد مرَّ فى الآية السابقة الحديث عن كفارها ، وسيأتى تكذيبهم للرسول فى الآية التالية .

ويرى غيره أن المراد عموم الناس مؤمنهم وكافرهم ، فكلهم مأمورون بتذكر نعمة الله وشكره عليها ، وأهل مكة داخلون فيهم .

ونعمة الله بالنسبة لأهل مكة أنه - تعالى - أسكنهم حرمًا آمنًا ، والناس يتخطفون من حولهم ، وأنه يسوق الأرزاق إليهم وهم يسكنون فى واد غير ذى زرع ، وهم - بعد ذلك - يشتركون مع سائر الناس فى نعم الله عليهم .

والمعنى : يأيها الناس تذكروا نعمة الله التى أنعم بها عليكم فى خلقكم فى أحسن الصور ، ومنحكم نعمة العقل والكلام والقوة والإرادة ، ومكنكم بذلك من استنباط منافع الأرض ظاهرها وباطنها ، ومن الدفاع عن أنفسكم ، والسعى على أرزاقكم ، وأنزل الماء من السماء لترووا به أرضكم ، فتخرج الزرع النضير والثمر الوفير ، ومنه تشربون وتسقون ماشيتكم هل من خالق سوى الله يرزقكم من السماء والأرض ما به قوام حياتكم ، وسبب وجودكم وبقائكم ، لَا إِلٰه إِلَّا هُو الخلاق الرزاق ، فكيف تُصْرفون عن توحيده والإيمان بما جاء به رسوله ﷺ .

٤ - (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) :

وإن يكذبك مشركو مكة - أيها الرسول - فلا تحزن ، فقد كُذِّبت رسل كثيرة قبلك من أممهم - والبلوى إذا عمت هانت - وإلى الله وحده ترجع أمور الخلائق جميعًا يوم الدين

فيحاسب كل امرىءٍ على عمله ويجزيه عليه : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

٥ - (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) :

المراد بوعد الله : البعث والجزاء ، وقد أشير إليهما فى الآية السابقة بقوله - تعالى - : « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

والمعنى : يأيها الناس إن وعد الله عبادَه بالبعث بعد الموت وحسابِهم وجزائهم على أعمالهم وعدٌ حق لا يتخلف ، فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها ، فتركنوا إليها وتعملوا لها وتتركوا العمل للآخرة ، فإن الدنيا فانية وأنتم تاركوها وراجعون إلينا بعد حين ، ولا يخدعنكم بالله الشيطان الخداع الغشاش ، فيقول لكم : تمتعوا بدنياكم من حلال ومن حرام كما تحبون فإن الله غفور رحيم - لا يخدعنكم بقوله هذا - فكما أنه غفور رحيم فهو عزيز ذو انتقام ، فكيف لا يغضب ممن غفل عن مرضاته ، وأصر على عصيانه ، وهو مغمور بنعمه ، ويعلم أن بطشه شديد ، فهل من العقل أن يتعاطى المرءُ السم القاتل ، ويعتقد أنه لا يموت به ، ولقد أكد الله تحذيره من الشيطان فقال :

٦ - (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) :

إن الشيطان لكم عدو - أيها الناس - منذ بداية خلقكم ، فقد أخرج أباكم آدمَ من الجنة ، وتوعد بإضلال ذريته ، فاتخذوه لكم عدوا واحذروا إغراءه وإضلاله فى عقائدكم وشرائعكم ، فما يدعو المتحزبين معه والمشايعين له إلا إلى ملاذ الدنيا وشهواتها الآثمة ، ليورطهم فيها ، ويجعلهم من أصحاب جهنم وبئس المصير .

(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ) : حسنت له نفسُه وشيطانُه عملَه السيء.

(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) : فلا تهلك نفسك تَحَسُّرًا عليهم .

(فَتُثِيرُ سَحَاباً) أَى : تُظْهره وتنشره .

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ) أَى : أَرسلناه إلى أَرض بلد لازرع فيه .

(كَذَلِكَ النُّشُورُ) أَى : مثل إحياءِ الأَرض بالنبات نشور الموتى وبعثهم من قبورهم .

التفسير

٧ ـ (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) :

حذَّر الله عباده فى الآية السابقة من خداع الشيطان حتى لا يكونوا باتباعه من أصحاب السعير ، وعقَّبها بهذه الآية ؛ لبيان مصير من يتبعه ومن يعرض عنه .

ومعنى الآية : الذين كفروا بسيرهم وراء الشيطان وقبولهم تغريره وخداعه لهم عذاب شديد لايُقَادَرُ قَدْرُهُ ، والذين صدقوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات التى عرفوها من الكتاب والسنة لهم مغفرة لما عسى أن يحدث منهم من الذنوب « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] ولهم مع ذلك أجر كبير ، لإيثارهم طاعة الله على طاعة الشيطان .

٨ - (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) :

لما بين الله فى الآية السابقة مصير الكافرين الذين غرهم بالله الغرور ، ومصير المؤمنين الذين أعرضوا عنه وأخلصوا لربهم ، جاءت هذه الآية لتأكيد تفاوت الفريقين فى الجزاء تبعاً لتفاوتهم فى العمل ، ولكى تخفف عن الرسول ﷺ أثر ابتعاد قومه عن دعوة الحق .

والمعنى : أهما متساويان فى العمل حتى يتساويا فى الجزاء ؟ فمن زين له الشيطان عمله السيء فاعتقده حسناً وانهمك فى الكفر والمعاصى ، كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح ؟ كلاَّ لا يستويان ، لست مسئولا يا محمد عن ضلال هؤلاء الضالين ، فإن الله يترك من يشاءُ فى ضلاله الذى أراده لنفسه ويعاقبه عليه ، ويُعِين من يشاءُ على الهدى الذى اختاره لنفسه ويثيب عليه ، لإعراضه عن الإصغاء إلى تزيين الشيطان ، فلا تُهلك نفسك تلهفاً على إيمانهم وحزناً على كفرهم ، إن الله عليم بما يصنعون فيجازيهم على كفرهم .

٩ - (وَاللهُ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ) :

هذه الآية تشير إلى برهان كونى على استحقاق الله - تعالى - للعبادة وحده ، كما تشير إلى خطأ الكفار بعبادتهم أوثانهم التى لاشأن لها فى أرزاقهم ، وكفرهم بالبعث والنشور مع قيام الدليل عليه بإحياء البلد الميت .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١١٤

ومعنى الآية : والله وحده هو الذى أرسل الرياح لتحمل بُخار الماء إلى حيث يتكون سحاباً فتثيره وتفرقه ، ويسوقه الله إلى بلد أرضه يابسة لانبات فيها ، فتحيي به الأرض بعد يبسها ، كذلك بعث الناس من قبورهم يوم القيامة فى السهولة واليسر .

قال أبو حيان : وقع التشبيه [١] بجهات ، كما قبلت الأرض الميتة الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة ، أو كما أن الريح تجمع قطع السحاب ، كذلك يجمع الله — تعالى — أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى ، أو كمايسوق — سبحانه — السحاب إلى البلد الميت ، يسوق — عز وجل — الروح والحياة إلى البدن : إ هـ .

وجاء بالمعنى الأخير حديث أبى رُزَين قال : قلت يارسول الله ، كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : يا أبا رُزَين ، أما مررت بوادى قومك مَحْلًا [٢] ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وتلك آيته فى خلقه [٣] .

رأى الكلاميين فى كيفية البعث

اختلف علماء الكلام (علماء علم التوحيد) فى طريقة إعادة الجسم ، فقال بعضهم : إنها تكون بإعادة أجزاء المبعوث المتفرقة وضمها بعضها إلى بعض ، وقال آخرون : إن الإعادة عن عدم ، وقد اعترض على هذا الرأى ، بأنها إذا كانت عن عدم ، فهذا يؤدى إلى أن يكون البعث إيجادًا لشخص جـديد لم يكلف فى الدنيا ، فكيف يثاب ثواب الأول أو يعاقب عقابه ، وقد أجاب أصحاب هـذا الرأى بأن الثواب والعقاب للروح ، والجسد بدونها لا يحس بعقاب ولا بثواب .

---

(١) أى : تشبيه النشور . (٢) أى : جدبا لانبات فيه . (٣) ابن كثير ، والقرطبى .

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ) : يريد الشرف والمنعة .

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) : إلى الله يصعد الكلام الطيب من التوحيد ، والذكر والدعوة إلى الحق ، وقراءة الكتاب ، والسنة ، والمراد من صعوده قبوله .

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) أى : أن العمل الصالح يرفع قدر الكلم الطيب عند الله تعالى.

(وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) : ومكر أهل السيئات يهلك ولاينفذ .

(ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً) أى : زَوّج بعضكم ببعض .

(وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ) : وما يطول عمر أحد حتى يصير معمرًا .

(وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ) : ولا ينقص من عمر أحـد غيره ، بأن يعطى عمرًا ناقصاً عنه .

(هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) : هذا عذب شديد العذوبة .

(وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) : وهذا مالح شديد الملوحة يحرق بملوحته .

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) : كاللؤلؤ والمرجان .

(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ) : الفلك تطلق على السفينة الواحدة ، وعلى أكثر منها ؛ والمراد هنا السفن ، ومعنى مواخر : جاريات تشق الماءَ بجريها .

التفسير

١٠ - (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) :

كان الكفار يتعززون بالأصنام ، كما قال - تعالى - : « وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا[1] » والمنافقون يتعزَّزون بالمشركين ، كما قال - سبحانه - : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا »[2] فأنزل الله - تعالى - هذه الآية تخطئة لهؤلاء وأولئك ، وبياناً لأن العزة من الله لمن أطاعه ، فهو الذى تطلب منه العزة بطاعته .

والصعود هو التحرك إلى أعلى ، وهو لا يكون فى الكلام على الحقيقة ، فهو مجاز عن قبوله ، والمقصود من قوله : (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ . . .) قريش ، حيث اجتمعوا فى دار الندوة ليمكروا برسول الله ﷺ كما يشير إليه قوله - تعالى - : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »[3]

---

(١) سورة مريم : ٨١ (٢) سورة النساء : ١٣٩
(٣) سورة الأنفال ، آية : ٣٠

ومعنى الآية : من كان يريد الشرف الرفيع والمنعَةَ ، فليطلبها من الله بطاعته ، فللهِ العزة جميعاً يهبها لمن يشاء ، إليه يرتفع الكلام الطيب من التوحيد وقراءة القرآن ، والأحاديث النبوية والذكر والشكر والدعوة إلى الحق ونحوها ، والعمل الصالح يرفع قدر هذا الكلام الطيب عند الله - تعالى - بحيث يكون له من الأجر أعظم مما لو تجرد عن العمل الصالح ، ويصح أن يعود الضمير المستتر إلى الله - تعالى - ويعود الضمير الظاهر إلى العمل ، والتقدير : والعمل الصالح يرفع الله إياه ويتقبله كما صعد إليه الكلام الطيب وتقبله .

والذين يمكرون المكرات السيئات من قريش ضد رسول الله ﷺ لهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة ، ومكر أُولئك هو يفْسُدُ ولا يتحقق « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » والآية وإن تنزلت فى مكر قريش برسول الله ﷺ فحكمها شامل لهم ولغيرهم ، كما قال - تعالى - : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[1] .

١١ - (وَاللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

تضمنت هذه الآية أن الله - تعالى - خلق جميع البشر من تراب ، وذلك إمَّا باعتبار أبيهم آدم ، فقد خلقه الله من تراب ، وإما لأنهم خلقوا من النطفة التى ترجع إلى الأغذية ، والأغذية نشأت من تراب ، فهم مخلوقون جميعاً من تراب لهذا أو لذاك .

والمقصود من النطفة ماءُ الرجل الذى فيه الحيوانات المنوية وماءُ المرأة الذى فيه البويضة ، وقد مر بيان ذلك مستوفى فى تفسير قوله - تعالى - : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ »[2] فارجع إليها إن شئت .

وهذه الآية تشير إلى دليل آخر من أدلة البعث غير ما تقدم والمقصود من قوله - تعالى - : (وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ) : وما يمد فى عمر أحد حتى يصير معمرًا ، فسماه معمرًا باعتبار

(١) سورة فاطر : ٤٣

(٢) الآية : ٥ من سورة الحج .

ما يؤول إليه ، والمقصود من قوله : (وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ) ولا ينقص من عمر أحد آخر غير المعمر ، كما تقول : عندى درهم ونصفه ، أى : ونصف درهم آخر غير الدرهم الأول ، وهذا هو المعروف فى علوم البلاغة (بالاستخدام) وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر .

ومعنى الآية : والله خلقكم يا بنى آدم من تراب ضمن خلق أبيكم آدم منه ؛ أو لأنكم خلقتم من الأغذية التى منشؤها التراب ، ثم خلقكم من نُطَف أبويكم ذكرانا وإناثا ثم جعلكم أزواجاً - يتزوج الذكر منكم الأنثى - ليبقى النوع الإنسانى إلى انقضاء الدنيا ،وماتحمل من أنثى بعد مباشرة الزوج لها إلَّا بعلم الله وتدبيره ، وما يعطى أحد عمرًا طويلا يصير به معمرًا وما ينقص من عمر غيره ، بأن يعطى عمرًا ناقصاً عن هذا المعمر إلَّا ثابتا فى كتاب [1] إن ذلك على الله سهل يسير ، فكذلك البعث والنشور .

ولابن عباس فى تفسير الآية رأى غير ماتقدم يرويه عنه سعيد بن جبير ، وهو أن المعنى : « وما يعمرمن معمر إلَّا كتب عمره كم هو سنةً ، كم هو شهرًا ،كمهو يومًا ،كم هو ساعةً ، ثم يكتب تحته ، أو فى كتاب آخر ، نقص من عمره يوم ، نقص من عمره شهر ، نقصت سنة ،حتى يستوفى أجله ، فما مضى من عمره فهو النقصان ، وما يستقبله فهو الذى يعمره » وقد شارك ابن عباس فى رأيه هذا ابن جبير وأبو مالك وحسَّانُ بن عطية والسُّدِّى ، كما ذكره الآلوسى ، وابن كثير .

ولكن جعل الآية شاملة لطويل العمر وقصيره أولى من قصرها على المعمر فقط ، فإن كليهما مكتوبٌ عند الله - تعالى - .

١٢ - (وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

---

(١) والمراد به : علم الله ، أو اللوح المحفوظ ، أو صحف الملائكة .

ينبهنا الله بهذه الآية إلى أنه - تعالى - مع قدرته على خلق الأشياء المتباينة طبعاً فهو قادر على أن يجعلها مشتركة فى بعض المنافع ، وأن يجعل بعضها منفرداً ببعض آخر منها ، والبحر فى اللغة : الماءُ الكثير ملحاً كان أو عذبا ، فكل ماء مستبحر فى المحيطات والبحار والبحيرات والخلجان والأنهار صغيرها وكبيرها يسمى بحراً ، والاشتراك بين الملح والعذب فى هذه التسمية واضح من النص الكريم ، وقد بين الله فى هذه الآية أن البحرين العذب والملح نأكل منهما لحماً طريا هو السمك بمختلف أنواعه وأحجامه ، والتعبير عنه باللحم الطرى للإشارة إلى لطافته وسهولة مضغه لضعف أليافه ، وأنه يكاد يكون لحماً خالصاً لقلة العظم فيه بالنسبة إلى سائر الحيوان ، كما أشار بالأكل منهما إلى المسارعة فى أكله قبل أن يفسد .

كما ذكر أننا نستخرج من كليهما حلية نلبسها ، كاللؤلؤ والمرجان ، ولكن المعروف أن ذلك لا يستخرج إلا من الملح دون العذب .

وقد أجاب النحاس عن ذلك : بأن الله جمع البحرين فى اللحم الطرى وأفرد أحدهما فى الحلية وهو الملح ، كما فى قوله - تعالى - : « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ » والسكون فى الليل ، والابتغاء من فضله فى النهار ، وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحلية من الدر وغيره من المواضع التى فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر الملح عيوناً عذبة ، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج ، وقيل : من مطر السماء[1] .

على أن الحلية ليس بلازم أن تكون من اللؤلؤ والمرجان ، فأى مانع من اتخاذ حلية من عظام السمك الضخم فى المياه العذبة الفسيحة الأطراف ، كالبحيرات الاستوائية ، ولهذا قال بعض قدامى العلماء : لا يبعد أن تكون الحلية من الماء العذب عظام السمك التى يصنع منها قبضات للسيوف والخناجر ، فتحمل ويتحلى بها .

وجاء فى التفسير المنتخب للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن العلم أثبت وجود الحلْية فى الماء العذب ، كما أثبته الواقع ، ففى المياه العذبة بإنجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان وغيرها توجد أنواع من أصداف اللؤلؤ من الماس والياقوت ، إلى غير ذلك ، فارجع إلى تعليقه فى الهامش على هذه الآية ؛ فإنه نفيس .

---

(١) انظر القرطبى .

ومعنى الآية : وما يستوى البحران فى صفاتهما وفى منافعهما ، هذا عذب شديد العذوبة سهل التناول لخلوه مما تعافه النفس ، وهذا ملح شديد الملوحة لذاع لايستساغ تناوله ، ومع تباينهما فى الصفة : فإنكم تأكلون من كل منهما سمكا طرى الألياف ، وتستخرجون حلية تتحلون بلبسها . وترى الفلك على اختلاف أحجامها تشق ماءه وهى تجرى بكم فيه ؛ لتطلبوا من فضل الله ورزقه متنقلين فيها من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ولتشكروه - تعالى - بأن تعرفوه وتعرفوا حقوقه فتؤدوها كما أمركم بها .

(يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ) : يدخله فيه فينقص الليل ويزيد النهار .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : ذللهما وأجراهما خاضعين لمشيئته .

(لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) : لوقت معين ، وسيأتى شرحه .

(مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) : القطمير : لفافة النواة .

التفسير

١٣ - (يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) :

يدخل الله ـ تعالى ـ الليل فى النهار فيزيد النهار وينقص الليل ، وذلك فى فصلى الربيع والصيف ، ويدخل النهار فى الليل ، فيزيد الليل وينقص النهار ، وذلك فى فصلى الخريف والشتاء ، وأجرى الشمس والقمر خاضعين لمشيئته ، كل منهما يجرى فى فلكه ، ويرسل نوره لأجل سماه الله ، وهو يوم القيامة ، أو هو مدة الدورة فى كليهما ، فدورة القمر تستغرق شهرًا قمرياً ، ودورة الشمس تستغرق سنة شمسية ، ثم يعود كلاهما لابتداء دورة جديدة ؛ ذلكم العظيم الشأن الذى أبدع هذا النظام هو الله ربكم له وحده الملك كله ، لا شريك له فيه ، والذين تدعونهم آلهة غيره من الأصنام ما يملكون قشرة نواة .

١٤ـ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ : إن تدعوهم يا عابديهم لتفريج كرب أو قضاء حاجة لا يسمعوا دعاءكم ؛ لأنها جمادات ، ولو سمعوا على سبيل الفرض والتقدير ما حققوا دعاءكم لعدم قدرتهم على النفع والضر ، ويوم القيامة يتبرأون من إشراككم بألسنة مقالهم يخلقها الله لهم ، أو بألسنة حالهم قائلين : ما نحن آلهة وما أمرناكم بعبادتنا ، وما كنتم إيانا تعبدون وإنما كنتم تعبدون هواكم .

ويحتمل أن تكون الآية عامة لمن عبد الأصنام والملائكة والبشر كعيسى ـ عليه السلام ـ وعدم سماع الملائكة وعيسى لهم ؛ لأنهم فى شغل عنهم بما هم فيه ، أو لأن الله صان أسماعهم عن ذلك الدعاء لقبحه ، ولو سمعوا ما استجابوا لهم .

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

المفردات :

(أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ) أى : المحتاجون إليه .

(هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) أى : المستغنى عما سواه بالذات ، المحمود بكل لسان .

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) : بأن يفنيكم ، ويستبدل بكم غيركم

(وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) أى : وما ذلك بصعب أو ممتنع على الله .

١٥ – (يَٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) :

والمعنى : يا أيها الناس أنتم المحتاجون فى أنفسكم إيجادا وإبقاء ، وفى حركاتكم وسكناتكم وفيما يَعنّ لكم من أموركم ، أو خطب يُلِمُّ بكم ، وهو – سبحانه – الغنى بالذات عما سواه المحمود بكل لسان ، لِفَيْضِ إنعامه عليكم بعد فقركم إليه .

وفى توجيه الخطاب لجميع الناس تغليب للحاضرين منهم على الغائبين .

١٦ – (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى : إن يشأ يذهبكم – أيها العصاة – بإفنائكم وإبدالكم بخلق أطوع منكم وأزكى ، ليسوا على طبيعتكم ، بل مستمرون على طاعته وتوحيده ، أو بأن يأتى بعالم غيركم لا تعرفونه ، فإن غناه فى الأزل بذاته لا بكم .

وتفسير « الجديد » بما ذكر مروى عن ابن عباس ، وجملة « إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ » تقرير وتأكيد لاستغنائه – عز وجل – عنهم .

١٧ – (وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) :

المعنى : أن إذهابهم والإتيان بخلق جديد ليس على الله بصعب أو متعذر ، فهو – سبحانه – القادر المتصرف إذا أراد شيئاً قال : كن ، فيكون .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(وَلَا تَزِرُ) أى : ولا تحمل ، والوزر : الإثم والثِّقْل ، يقال : وزر يزر من باب وعد ، إذا حمل الإثم أو الثّقل .

(وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا) أى : وإن تدع نفس أثقلها الإثم إلى حِملها - بكسر الحاء - وهو فى الأصل ما يحمل على الظهر ثم استعير للمعانى نحو : الذنوب والآثام . والجمع أحمال وحمول ، وهو من باب ضرب .

(وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ) أى : ومن يصلح حاله فإن ثمرة صلاحه تعود إليه ، يقال : زكا يزكو إذا صلح ، وزكيته بالتثقيل : نسبته إلى الزكاة وهى الصلاح والطهر .

(وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) أى : المرجع والمآب .

التفسير

١٨ - (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ . .) :

روى أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد ﷺ وعلىَّ وِزْركم ، فنزلت .

والمعنى : ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى يوم القيامة ، بل كل نفس تحمل إثمها الذى اقترفته ، فلا تؤاخذ نفس بما لا تقترفه كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بجاره ، والمولى بوليه .

وأما قوله ـ تعالى ـ : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ » فهو وارد فى الضالين المضلين ؛ فإنهم يحملون أثقال إضلالهم الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله من أوزارهم فليس فيه شىء من أوزار غيرهم ، والمراد بأثقالهم : ماكان بمباشرتهم ، وبما معها : ما كان بسببهم .

والمعنى : وإن تدع نفس مثقلة بحملها من الذنوب إنساناً ليتحمل عنها بعض أوزارها لم تُجب بحمل شىء منه ، ولو كان المدعو ذا قربى من الداعى كأب أو ولد أو أخ ، إذ كل مشغول بنفسه كما قال ـ تعالى ـ : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[1] .

وروى عن عكرمة : أن الرجل يأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول له : ألم أكن بك باراً ، وعليك مشفقاً ، وإليك محسناً ، وأنت ترى ما أنا فيه ؟ فهب لى حسنة من حسناتك ، أو احمل عنى سيئة . فيقول : إن الذى سألتنى يسير ولكنى أخاف مما تخاف منه ، وإن الأب يقول لابنه مثل ذلك ، فيرد عليه نحوا من هذا ، ثم تلا عكرمة : « وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » .

وقال الفضيل بن عياض : هى المرأة تَلْقَى ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ؟ ألم يكن لك ثديى سقاء ؟ ألم يكن حجرى لك وطاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول : يابنى ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمل عنى منها ذنباً واحداً ، فيقول : إليك عنى يا أماه فإنى بذنبى عنك مشغول .

(إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) : استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر ، أى : إنما تنذر بهذه الإنذارات ونحوها الذين يخشون ربهم غائبين

---

(١) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧

عن عذابه ، أو عن الناس فى خلواتهم ، وأقاموا الصلاة بأركانها وشروطها ، بقلوب واعية ، وأفئدة ذاكرة ، فإنما ينتفع بإنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل الكفر والعناد ، فلا تحزن على إعراضهم عنك وصدهم غيرهم عن دعوتك .

(وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) أى : ومن تطهر من الأوزار والمعاصى بالإيمان والتوبة والعمل الصالح ؛ فإنما يتطهر لنفسه ؛ لاقتصار نفع عمله عليها ، كما أن من تدنس بالمعاصى والإعراض عن دعوة الرسول لا يتدنس إلا عليها .

وهذه الجملة فيها حث على تطهير النفس وتزكيتها .

(وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) أى : وإلى الله المرجع والمآب لا إلى غيره ، وهو وعد للطائع بحسن العاقبة ، ووعيد للعاصى بسوء الخاتمة .

(وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : مثل للكافر والمؤمن . (وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ) : مثل للباطل والحق . (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) : مثل للثواب والعقاب ، والحرور : الريح الحارة كالسموم ، إلا أن السموم تكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار ، نقل ذلك عن الفراء ، وقال الأخفش : الحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل .

١٩ - (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : عطف على قوله : « وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ » ، والأعمى والبصير : مثلان للكافر والمؤمن كما قال قتادة والسدى وغيرهما ، أى : لا يستوى الكافر الذى يماثل الأعمى فى عدم الاهتداء إلى الطريق الموصلة للغاية ، لا يستوى مع المؤمن الذى يماثل البصير ، فى أنه يضع الأمور فى نصابها ، ويرى الضار والنافع ، ولا تلتبس عليه السبل ، ولا تخفى عليه المقاصد والغايات ، فيهتدى إلى خالقه ولا يشرك به غيره .

وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف ، إشارة إلى أن الكافر موجود قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان ، فالاستبصار يأتى بعد ضده .

٢٠ - (وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ) :

أى : ولا يستوى الباطل المشبه للظلمات ، ولا الحق المماثل للنور ، إذ الظلمات تدعو إلى الحيرة شأن الباطل ، والنور يهدى إلى الطريق القويم ، شأن الحق .

وجمع الظلمات مع إفراد النور ، لتعدد فنون الباطل ، مع اتحاد سبل الحق ، وقدمت الظلمات على النور ، لأنها عدم والنور وجود ، والعدم مقدم على الوجود .

٢١ - (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) :

أى : ولا يستوى الثواب المشبه للظل فى أنه داع إلى الراحة والنعيم ، مع العقاب الذى يماثل الحرور ، وهى الريح الحارة ، وهى ريح تلفح الوجوه وتكاد تمسك الأنفاس.

وتكرير لفظ (لا) . . بين المتقابلين للتأكيد .

٢٢ - (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) :

تمثيل للمؤمنين الذين دخلوا فى الدين بعد البعثة بالأحياء ، وللكافرين الذين استكبروا وأصروا على كفرهم بالأموات .

(إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ) أى : يسمع من يشاء من أوليائه الذين خلقهم لجنته سماع تدبر وقبول لآياته .

(وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) أى : إنك لا تسمع الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ، وأبطل حواسهم فأصبحوا كالأموات ، وكما أنك لا تسمع الأموات الذين توسدوا القبور ، فكذلك لا تسمع من مات قلبه من هؤلاء المشركين الذين كتبت عليهم الشقاوة والجملة ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ، وإشباع فى إقناطه - عليه السلام - من إيمانهم ، حيث علم - سبحانه - من يدخل فى الإسلام ممن لا يدخل فيه ، فيهدى سبحانه من يشاء هدايته ، وأما أنت فخفى عليك أمرهم ، فلا تحرص على إيمان قوم مخذولين رضوا بالباطل وأصروا عليه .

٢٣ - (إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ) :

أى : ما أنت إلا منذر بتبليغ رسالة ربك ، فإن كان المنذر ممن أراد الله له الهداية وفق ما علم - سبحانه - عن طبيعته ، وحسن اختياره ، سمع واهتدى ، وإن كان ممن أراد الله ضلاله ، وطبع على قلبه لإصراره على الكفر ضل وغوى ، فلا تحزن عليهم ؛ لأنه ليس عليك من أمر هدايتهم أو ضلالهم سوى التبليغ والإنذار ، وأما الاهتداء فليس من وظائفك ولا حيلة لك فى المطبوع على قلوبهم لسوء اختيارهم ، وخبث نفوسهم .

(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ) أى : محقين بإرسالك ، أو إرسالا مصحوبا بالحق

(وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) أى : ما من أمة مضى فيها نذير من نبى أو عالم يقال : مضى يمضى مضيا : خلا .

(وَبِالزُّبُرِ) أى : الكتب : جمع زبور ، فعول من الزبر بمعنى الكتابة ، والزبور كتاب داود – عليه السلام – (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا) من الأخذ : بمعنى الإيقاع بالشخص وإنزال العقوبة به .

(فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أى : فكان إنكارى عليهم شديدا بليغا .

التفسير

٢٤ – (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) :

المعنى : إنا أرسلناك – أيها النبى – محقين بإرسالك لتكون بشيرا بالوعد الحق ، ونذيرا بالوعيد الحق ، وما من أمة من الأمم التى وجدت فى الأزمنة السابقة إلا سلف فيها نذير من نبى أو عالم ، قام بما كلف به من نذارة أو بشارة ، والاكتفاء بقوله : « نذير » للعلم بأن النذارة قرينة البشارة ، ولا سيما أنهما اقترنتا فى صدر الآية .

٢٥ – (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) : الآية تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – .

والمعنى : وإن أصر هؤلاء المكذبون من كفار قريش على تكذيبهم إياك ، فلا تبال بهم ، ولا تعبأ بإعراضهم ؛ لأنه قد كذب الذين من قبلهم من الأمم الفانية التى اتبعت هواها ، وقد جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرة ، والآيات والبراهين البينة ، والشرائع الموضحة الدالة على نبوتهم ، وصدق دعوتهم ، كما جاءتهم الصحف الإلهية كصحف إبراهيم ، وبالكتاب الذى يشع نورًا وحكمة كالتوراة والإنجيل – على إرادة التفصيل – ، يعنى : أن بعض الرسل جاء بالبينات لقوم ، وبعضهم جاء بالزبر لآخرين ، وبعض جاء بالكتاب المنير لغيرهم ، لا على معنى إرادة الجمع وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر ، ويلاحظ أن البينات بمعنى الدلائل أو الشرائع جاءت لجميعهم .

٢٦ - (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى : ومع ماجاءهم به رسلهم من المعجزات والكتب استمروا على تكذيبهم ، فأمهلهم الله ثم عاقبهم بأنواع العقوبة التى تركتهم أثرًا بعد عين لكفرهم (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) الاستفهام للتهويل والتعظيم ، والمعنى : فكان إنكارى عليهم عظيمًا بليغًا استأصلهم حتى لم تبق لهم باقية .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ) الجدد : الطرائق المختلفة فى ألوان الجبال ، جمع جُدة - بضم الجيم - وهى الطريقة .

(وَغَرَابِيبُ سُودٌ) : جمع غربيب ، وهو الذى أبعد فى السواد ، وأغرب فيه ، ومنه الغراب ، والعرب تقول للشديد السواد الذى لونه لون الغراب : أسود غربيب ، ولفظ « سود » بدل من غرابيب وليس توكيدًا ؛ لأن توكيد الكلمات لا يتقدم عليها . إهـ : قرطبى نقلًا عن القاموس .

(وَالدَّوَآبُّ) : جمع دابة ، وهى مادب من الحيوان ، وغلب على مايركب ، ويقع على المذكر أيضًا : قاموس .

التفسير

٢٧ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا . . . ﴾ الآية .

استئناف مسوق لتقرير ما أشعر به قوله ـ تعالى ـ : « ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » من عظيم قدرته ـ عز وجل ـ وقال أبو حيان : هو لتقرير وحدانيته ـ تعالى ـ بأدلة سماوية وأرضية إثر تقريرها بأمثال ضربها ـ عز وجل ـ والاستفهام للتقرير ، والرؤية قلبية .

والمعنى : ألم ينته إلى علمك قدرة الله البالغة فيما ذكر ، وفى خلقه الأشياء المختلفة من شىء واحد وهو الماء الذى أنزله من السماء ، فأخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها من أصفر ، وأحمر ، وأخضر ، وأبيض ، أو يراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع ، فيختلف كل نوع بتعدد أصنافه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ : إما عطف على ما قبله بحسب المعنى ؛ أو حال ، أى : وبعض الجبال ذو جدد بمعنى طرائق يخالف لون بعضها لون البعض الآخر ، حيث نجد منها طريقة بيضاء ، ومنها طريقة حمراء ، ومن الجبال ما اتحد لونه ، وهو الأسود شديد السواد ، وقيل : عطف على بيض فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بالجبال الملونة ، والغربيب تأكيد للأسود بحسب المعنى ، فيقال : أسود غربيب وهو الذى أبعد فى السواد وأغرب ، وقد جاء فى الآية على التقديم والتأخير ، أى : سود غرابيب ، كما قال الفراء ، فيعرب بدلا كما تقدم .

وفى تلك الجبال التى تختلف ألوانها آيات واضحة على كمال قدرة الله ، وعظيم صنعه ، تنزهت أسماؤه عن الشريك والنظير ، وعلا علوًا كبيرًا .

٢٨ ـ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ . . . ﴾ الآية .

المعنى : وبعض الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، أى : اختلافًا كاختلاف الثمرات والجبال ، ففيهم الأحمر والأبيض والأسود ، وقوله : « كَذَٰلِكَ » من تمام ما قبله والوقف عليه حسن بإجماع أهل الأداء ، وهذا الاختلاف فى الألوان دليل على صانع مختار ـ جل شأنه ـ

وقوله -سبحانه- : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) تكملة لقوله -تعالى- : « إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم » بتعيين من يخشى الله - عز وجل - من الناس ، بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم ، أى : إنما يخشاه بالغيب العلماءُ الذين علموه بصفاته فعظموه ، ومن ازداد علمًا به ازداد منه خوفًا ، وأحق الناس بخشية الله هم العلماءُ الذين عرفوا أسرار اختلاف هذه الموجودات مع أنها من أصل واحد ، ومَنْ عِلْمُه به أقل كان آمنا لجهله وسوء نظره فيما وراء هذه الحياة ؛ لأن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشئونه ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - : « أنا أخشاكم لله وأتقاكم له » ، وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم ، وقال مجاهد : إنما العالم من خشى الله - عز وجل - وأسند الدارمى أبو محمد عن مكحول قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إن فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم ، ثم تلا : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ») وحيث كان الكفار بمعزل عن هذه المعرفة لم يفد إنذارهم بالكلية إلَّا من ألقى السمع وهو شهيد .

وتقديم لفظ الجلالة وتأخير العلماء يؤذن أن الذين يخشون الله من عباده العلماءُ دون غيرهم ، وقرئ برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء ، ويكون المعنى : إنما يعظم الله من عباده العلماءَ ويجلهم ، فالخشية مستعارة للتعظيم ؛ لأن المعظَّم يكون مهيبًا .

(إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) : تعليل لوجوب الخشية لدلالة العزة على كمال القدرة على عقوبة العصاة وقهرهم ، ودلالة المغفرة على إثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، والمعاقب المثيب حقه أن يُخشى ، ولا يوصف بالمغفرة والرحمة إلَّا القادر على العقوبة .

وفى بعض الآثار : نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - وقد ظهرت عليه هذه الخشية حتى عرفت فيه .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ) : يقرءونه ، وفعله : تلاه يتلوه تلاوة ، ويقال : تلوت الرجل أتلوه تُلُوًّا على فُعُول : تبعته ، فأنا له تالٍ ، وتِلْو وزن حِمْل .

(لَنْ تَبُورَ) : لن تهلك . يقال : بارَ يبور بُورًا ـ بالضم ـ هلك . أو لن تكسد ، يقال : بار الشيءُ بَوْرا ـ بالفتح ـ : كسد ؛ لأنه إذا ترك صار غيرمنتفع به فأشبه الهالك من هذا الوجه ، فالمعنيان متقاربان .

التفسير

٢٩ ـ (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) :

المراد من الذين يتلون كتاب الله ، الذين يداومون على قراءته حتى صارت لهم سمة وعنوانًا ، والمقصود بهم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال عطاء : هم المؤمنون أى : عامَّةً وهو الأرجح ، ويدخل فيهم الأصحاب دخولًا أوليًّا ، وهم مع مداومتهم على تلاوته يعملون به ، فتلك صفتهم .

وقيل : معنى يتلون كتاب الله : يتبعونه فيعملون بما فيه ، بجعل يتلو من تلاه إذا تبعه ، واختار بعضهم المعنى المتبادر حيث إنه ـ سبحانه ـ لما ذكر الخشية وهى عمل القلب ذكر بعدها عمل اللسان والجوارح والعبادة المالية .

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) أى : لا يقنعون بتلاوته عن حلاوة العمل بما دعا إليه ، فيقيمون الصلاة فرضًا ونفلًا ، وينفقون ممَّا آتاهم الله كيفما تيسر لهم الإنفاق فى السر أو العلانية ، وقيل : السر فى الإنفاق المسنون ، والعلانية فى الإنفاق المفروض .

وكون الإنفاق ممَّا رزقوا إشارة إلى أنهم لم يُسْرِفوا ولم يبسطوا أيديهم كل البسط ، فمِنْ للتبعيض ، ومقام المدح يشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب .

(يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) أى : يرجون بما قدموا من الطاعات معاملة مع الله لنيل ربح الثواب ، فالتجارة مجاز عن ذلك ، وهذه تجارة لن تهلك ولن تكسد ، وجملة (لَن تَبُورَ) صفة لتجارة جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران ؛ لأنها اشتراءُ باقٍ بفان ، وفيه إشعار بأنهم لا يقطعون برواج تجارتهم عند الله ، بل يأتون ما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة ألَّا يقبلها الله منهم .

٣٠ - (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) :

قوله - سبحانه - : « لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ » متعلق بـ « لَن تَبُورَ » أى : لن تبور ليوفيهم أجور ما قدموا من الطاعات والأعمال الصالحة ، ويزيدهم عليه من خزائن فضله ، وفيض إنعامه . (إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) : تعليل لما قبله من التوفية والزيادة ، أى : غفور للذنوب ، شكور يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب .

(وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مِنَ الْكِتَابِ) أى : القرآن .

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ) أى : جعلنا القرآن ميراثًا منك لأُمتك التى اخترناها على سائر الأمم .

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) : بأن رجحت سيئاته على حسناته .

(وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ) : بأن تساوت حسناته مع سيئاته .

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) : بأن رجحت حسناته على سيئاته .

(يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) : الأساور : جمع أسورة جمع سوار ، فهى جمع جمع ، وهو مايلبس فى المعصم ، وسوار المرأة معرب كما قال الراغب .

(الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) أى : أزال جنس الحزن الشامل لأحزان الدنيا والآخرة .

(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ) أى : تعب ومشقة ، يقال : نَصِب كفرح إذا تعب وأعيا .

(وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) أى : إعياءٌ وكلال من التعب ، يقال : لغب لَغْبًا ولغوبًا ، كمنع : أعيا أشد الإعياء .

التفسير

٣١ - (وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) :

المعنى : والقرآن الذى أوحيناه إليك -أيها النبى- هو الحق مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية ، بمعنى أنه لا ينفك عن التصديق لها وموافقته إياها فى العقائد وأصول الأحكام ، وهو -سبحانه- محيط ببواطن أمور عباده وظواهرهم ، فَعلِمكَ وأبصر أحوالك ، ورآك أهلًا لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذى اشتمل على سائر الكتب .

٣٢ - (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) :

المعنى : نحن أوحينا إليك القرآن الكريم ثم قضينا بتوريثه منك الذين اصطفيناهم من عبادنا ، وهم -كما قال ابن عباس وغيره- : أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعدهم ممن يسير سيرتهم إلى يوم القيامة ، أو أمته بأسرهم ، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وَسَطًا ، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله - عليهم الصلاة والسلام - وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله -تعالى- : « فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ [1] » والتعبير عن الإيراث بلفظ الماضى لتحقق وقوعه ، ولأنهم ورثوه أزلًا فى علم الله .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٦٩

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) : الفاءُ للتفصيل ، أى : ظالم لها بالتقصير وهو المرجأُ لأَمر الله .

(وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) : يتردد بين العمل بالقرآن ومخالفته .

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ) أى : مقبل عليها ، حريص على تحصيلها قبل غيره ، بعلم الله وتوفيقه .

وفى قوله : « بِإِذْنِ اللهِ » تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأْخذها .

وخلاصة القول إن الظالم لنفسه :مَن رجحت سيئاته على حسناته ، والمقتصد : مَن استوت سيئاته وحسناته ، والسابق :مَن سبقت حسناته على سيئاته ـ كما تقدم فى المفردات ـ وكلهم من أهل الجنة مآلًا بعد عفو الله ، وقد روى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال ـ وهو على المنبر ـ : قال رسول الله ﷺ : « سابقنا سـابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له » ، وسئل أبو يوسف ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية فقال : كلهم مؤمنون ، وأَمَّا الكافرون فصفتهم بعد هذا ، وهو قوله ـ تعالى ـ : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ » وكون الطبقات الثلاث من أهل الإيمان هو ما عليه الجمهور .

وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرة أفراده ، وأن المقتصدين قليل بالنظر إليهم ، والسابقين أقل من القليل ، وقيل : قدم الظالم لئلا ييأَس من رحمة الله ، وأخر السابق لئلا يعجب بعمله ، فتعين توسيط المقتصد .

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) أى : ما تقدم من توريث الكتاب ، والاصطفاء : هو الفضل الذى لا يعادله فضل فى سموه ، وعلو منزلته عند الله . وقيل : الإشارة إلى السبق فى الخيرات ، وهو الفضل الذى لا ينال إلَّا بتوفيق الله وتأْييده .

٣٣ ـ (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) :

يخبر الله أن مأْوى هؤلاء المصطفين من عباده الجنة ، وهم الظالم لنفسه ، والمقتصد ،

والسابق ؛ لأن الدخول ميراث ، والميراث يستحقه العاق والبار إذا كان نسبهم صحيحًا ، وهؤلاء قد صح نسبهم إلى الإسلام بالإيمان ، غير أن الظالم يحبس يوم القيامة ويُردع ويقرع ثم يدخل هؤلاء جميعًا الجنة ، يحلون فيها بعض أساور من ذهب ، ويحلون لؤلؤا كذلك .

(وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) أى : حرير محض ، وتغيير الأُسلوب حيث لم يقل : ويلبسون فيها حريرا ، للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان ، إذ لا يمكن عراؤهم عنه ، وإنما المحتاج إلى البيان ماذا يلبسون ؟ بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية ، فجعل بيان تحليتهم بها مقصودًا بالذات ، ولعل هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان صفة اللباس ، وهذا الحرير محظور عليهم فى الدنيا ، فكان لهم فى الآخرة ، ثبت فى الصحيح أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وقال : هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » .

٣٤ – (وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) :

المعنى : ويقول الذين ظلموا أنفسهم بعمل ما يؤاخذون به – بعد أن يتلقاهم الله برحمته – : الحمد لله الذى أذهب عنا جنس الحزن المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة إن ربنا يغفر الجنايات وإن كثرت ، شكور بقبول الطاعات وإن قلت .

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فى ذلك : « غفر لنا العظيم من ذنوبنا ، وشكر القليل من أعمالنا » .

٣٥ – (الَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) :

هذا من تتمة كلام الذين حمدوا الله وأثنوا عليه ، أى يقولون : الحمد لله الذى أعطانا دار الإقامة فى الجنة التى لا انتقال بعدها من فضله ومنته وكرمه ، فإن العمل وإن كان سببًا لدخول الجنة فى الجملة ، لكن سببيته بفضل الله ، إذ ليس هناك استحقاق ذاتى ، ومن علم أن العمل متناه زائل ، وثواب الله دائم لا يزول لم يشك فى أن الله ما أحل من أحل دار الإقامة إلَّا بمحض فضله – سبحانه – كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنةَ . قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلَّا أن يتغمدَنى اللهُ برحمةٍ منه وفضل » .

(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) أى : لا يمسنا فى الجنة تعب ومشقة ، ولا يلحقنا فيها كلال وفتور ، واللغوب وإن كان نتيجة النصب إلَّا أنه ضم إليه بالعطف ، وتكرير الفعل للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما ، قاله جمع من الأجلة .

وفرق بعضهم بين النصَب واللغوب فقال : النصب : التعب الجسمانى ، واللغوب : التعب النفسانى .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا) : لا يحكم عليهم بموت ثان فتحصل لهم الاستراحة .

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا) أى : يستغيثون فى النار بصوت عال ، والصراخ : الصوت المرتفع .

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أى : أولم نعمركم عمرًا يتذكر فيه من أراد التذكر والتفكر ، وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه .

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) : الرسول أو المشيب ، أو العقل ، أو موت الأقارب ، أو كل أولئك .

(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) : بخفاياها من النزوات والميول ، وعبر عنها بذات الصدور لملازمتها لها .

التفسير

٣٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ) :

لما ذكر -سبحانه- أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم .

والمعنى : أن أهل النار يعذبون عذابًا مستمرًّا بحيث لا يقضى عليهم بموت ثان فيستريحوا بذلك من عذابها مثل قوله -تعالى- : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى » . « وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا » . « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » وهذا لا ينافى تعذيبهم بالزمهرير ونحوه ، ومثل هذا الجزاء البالغ الشدة يجازى كل كفور مبالغ فى الكفر ، لا بجزاء أخف منه وأيسر .

٣٧ - (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) :

المعنى : أن الكفار يستغيثون فى النار بصوت عال ؛ لأن المستغيث يصيح عاليًا وبه فسره هنا قتادة . ويقولون تحسرا وألمًا على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به ، يقولون : ربنا أخرجنا من النار إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر ، ونطع بدل المعصية . وعن ابن عباس : أرادوا بالعمل الصالح : لَا إِلَهَ إِلَّا الله « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ » جواب من قبل الله -تعالى- وتوبيخ لهم . أى : ألم نمهلكم ونعمركم عمرًا يتمكن فيه المكلف من التذكر والتفكر وإن قصر ؛ لأن الحق واضح يستوى فى إدراكه من طال عمره ومن قصر ، إلا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم ، وقد جاء فيه ما أخرجه الإمام أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أعذر الله تعالى إلى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » . (وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) : يحذركم ،

والمراد به جنس النذير ، فيشمل العقل والأنبياء وكتبهم ، ويؤيده أنه قرئ : « وَجَآءَكُمُ النُّذُرُ » بصيغة الجمع .

وعن ابن عباس ، وعكرمة ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع ، والحسين بن الفضل ، والفراء ، والطبرى : هو الشيب ، وفى الأثر : « ما من شعرة تبيض إلَّا قالت لأختها : استعدى فقد قرب الموت » .

(فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) الفاءُ فى قوله : « فَذُوقُوا » لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجيء النذير ، أى : فذوقوا العذاب؛ لأنه معد للظالمين أمثالكم وليس لكم ناصر ولا معين ، والمراد بالظلم هنا الكفر ، وأفادت الجملة استمرار نفى أن يكون لهم نصير يدفع عنهم العذاب .

٣٨- (إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : أنه- سبحانه- يعلم كل غيب فى السموات والأرض ، فلا تخفى عليه أحوالهم التى اقتضت الحكمة أن يعاملوا بها هذه المعاملة ولا يخرجوا من النار ، ولو أجابهم وأعادهم إلى الدنيا لعادوا لما نهاهم عنه : (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) تعليل لما قبله ؛ لأنه إذا علم مضمرات الصدور ، وهى أخفى ما يكون ، فقد علم -عز وجل- كل غيب فى العالم .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ) أى : جعلكم خلفًا بعد خلف ، وقرنًا بعد قرن ، ترثون ما بأيديهم من مال وجاه ، والخلف : التالى للمتقدم ، والخلائف : جمع خليفة ، وهو مطرد فى فعيلة .

(إِلَّا مَقْتًا) : بغضا وغضباً .

(إِلَّا خَسَارًا) : هلاكا وضلالا .

التفسير

٣٩ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) :

الخطاب فى الآية قيل : عام ، واستظهره فى البحر ، وقيل : لأهل مكة .

والمعنى : أنه - سبحانه - ألقى إليكم مقاليد التصرف فى الأرض والانتفاع بما فيها من خيرات جمة ، وأباح لكم منافعها المتعددة ، وجعلكم تخلفون من قبلكم من الأمم ، وأورثكم ما بأيديهم من متع الدنيا ؛ لتشكروه بالتوحيد والطاعة ، أو جعلكم بدل من كان قبلكم من الأمم الذين كذبوا الرسل فهلكوا ، فلم تتعظوا بحالهم ، وما حل بهم من الهلاك ، فمن جحد منكم ، وكفر بهذه النعمة العظيمة ، وغمطها حقها ، ولم يعتبر بما حل بالسابق من الأمم فعليه وبال كفره لا يتعداه إلى غيره ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، ثم بين - سبحانه - وبال كفرهم بقوله : (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) أى : أن عاقبة كفرهم هى مقت الله الشديد ، وخسار الآخرة الذى ما بعده شر ولا إذلال .

وجملة (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ) إلى آخر الآية بيان وتفسير لقوله - تعالى - : « فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » ولزيادة تفصيله نزل منزلة المغاير له فعطف عليه .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾)

المفـردات :

(أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ) أى : أخبرونى عن آلهتكم الذين أشركتموهم فى العبادة .

(أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ) أى : نصيب فى خلقها .

(فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ) أى : حجة ظاهرة .

(بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) أى : أباطيل تغر ، وهى قول الرؤساء للأتباع : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم إلى الله – عز وجل .

التفسـير

٤٠ – (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) :

الآية عند الكثير فى عبدة الأصنام ، وقيل : فى غير عبادة الله –عز وجل– صنمًا كان أو ملكا أو غيرهما .

والمعنى : قل – أيها الرسول تبكيتًا للمشركين وإنكارًا عليهم – : أخبرونى عن شركائكم الذين أشركتموهم فى العبادة ، ودعوتموهم آلهتكم من دون الله : (أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أى : أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة أرونى أى جزء خلقوا من الأرض ، واستبدوا بخلقه دون الله حتى استحقوا الألوهية والشركة ، ثم أضرب عن ذلك فقال : (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ) أى : بل ألهم شرك مع الله فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الألوهية (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا) : أم بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أآتيناهم كتابًا ينطق بأنا اتخذناهم شركاء فهم على حجة واضحة من ذلك الكتاب المنزل عليهم بأن لهم شركة معه –سبحانه– خلقًا وبقاء وتصرفا ، حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم . وليس الأمر كذلك فهم لا يملكون من قطمير ، وفى هذا رد على من عبد غيره ؛ لأنهم لا يجدون فى كتاب من الكتب السماوية أن الله –عز وجل– أمر أن يعبد غيره فهم لا يجدون تبريرا لما صنعوا ، وفيه إيماء إلى أن الشرك أمر خطير سلكوه من غير دليل ، ولا بد فى إثباته من تعاضد الدلائل ، وهو ضرب من المستحيل .

وأسندت الشركة إليهم فى قوله ـ تعالى ـ : (أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمْ) أى : آلهتكم لأنهم هم الذين جعلوهم شركاء لله ـ تعالى ـ واعتقدوهم كذلك من غير أن يكون له أصل ما قطعًا .

وقيل : الإضافة حقيقية ؛ لأنهم جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه ، أو جعلهم الله شركاء لهم فى النار كما قال ـ سبحانه ـ : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ».

ولما تقرر نفى أنواع الحجج فيما ذكر أضرب عنه بذكر ما حملهم على الشرك فقال ـ سبحانه ـ : (بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) أى : إن الذى حملهم على الشرك هو تغرير الأسلاف للأخلاف ، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء لهم عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه ، وما هو إلا أباطيل اقترفوها للتغرير والتمويه .

* (إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١))

المفردات :

(يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) : يحفظهما كراهة زوالهما ، أو يمنعهما ، فالإمساك مجاز عن الحفظ أو المنع .

(أَن تَزُولَا) : أن تنهدًا وتضمحلا .

التفسير

٤١ ـ (إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) :

قررت الآية السابقة أن الآلهة التى اتخذها المشركون شركاء لله ، أو عبدوها من دونه ، عاجزة عن خلق شىء من الأرض والسماء استقلالًا أو مشاركة ، وجاءت هذه الآية بعدها.

استئنافا يقرر قبح الشرك ، ويصور قدرة الله ـ تعالى ـ الواضحة بذكر عظمته فى حفظ السموات والأرض .

والمعنى : إن من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ الجلية التى لا تنكرها عين ، ولا يجحدها عقـل ، إمساك الله السموات والأرض وحفظهما ومنعهما أن تنهدًّا ، أو تغيرا مسيرتهما زمانًا أو مكانًا ؛ فإن الممكن حال بقائه لابد له من حافظ يحفظه ، ولا يكون ذلك إلَّا دائم الوجود ـ سبحانه ـ (وَلَئِن زَالَتَا) أى : ولئن أشرفتا على الزوال بشرك هؤلاء المشركين ـ ما أمسكهما من أحد بعد الله كائنا من كان ، أو بعد زوالهما .

وقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) معناه : إن الله ـ تعالى ـ عظيم الحلم واسع العفو ، ومن جملة ذلك حلمه ـ تعالى ـ على المشركين : وتوبته على من تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضى لتعجيل العقوبة لهم ، وعدم إمساك السموات والأرض ، وتخريب العالم الذى هم فيه ، وكانتا جديرتين أن تهدا هدًّا ؛ لشؤم معصيتهم كما فى قوله ـ تعالى ـ : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا »[1] .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال لرجل مقبل من الشام : « من لقيت ؟ قال : كعبًا . قال : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : إن السموات على منكب ملك قال : كذب كعبٌ ، أما ترك يهوديته بعد ؟ ثم قرأ هذه الآية :

(وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾)

(١) سورة مريم الآية : ٩٠

المفردات :

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : حلفوا وبالغوا فى الحلف واجتهدوا أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم .

(نَذِيرٌ) : نبى يبلغهم ويخوفهم .

(أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ) : أهدى من كل واحدة من أمة اليهود ، والنصارى وغيرهم ، فإحدى بمعنى واحدة ، وأريد بها العموم وإن كانت فى الإثبات لا تعم إلّا لاقتضاء المقام ، أو المعنى : أهدى من أمة يقال فيها : إحدى الأمم بمعنى واحدتها ، تفضيلًا على غيرها من الأمم ، كما يقال : واحد قومه ، وواحد عصره ، وقيل المعنى : أهدى من بعض الأمم والبعض المبهم قد يقصد به التعظيم ، وإحدى مثله .

(نُفُورًا) : تباعدا عن الحق وهرباً منه .

(اسْتِكْبَارًا) : تعاليًا وعتوا عن الإيمان .

(وَمَكْرَ السَّيِّءِ) : مكر العمل السيء وهو الشرك ، وخداع الضعفاء ، وردهم عن الإيمان والكيد لرسول الله ، وأصل التركيب : استكبارًا فى الأرض ، وأن مكروا المكر السيئ ، ثم أقيم المصدر مقام أن والفعل وأضمر فيه الفاعل ، وأضيف إلى ماكان صفته .

(وَلَايَحِيقُ) : ولا يحيط ، من حاق بالشيئ إذا أحاط به ، من باب باع ، وقال الراغب : أى : لا يصيب ولا ينزل .

(سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ) : طريقة الأولين وسيرتهم ، أى : سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم .

((تَبْدِيلًا) : وَضْع غير العذاب موضع العذاب .

(تَحْوِيلًا) : نقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم .

التفسير

٤٢ – (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّازَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) :

بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ، فو الله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم كان منهم بَعْدُ ماكان ، فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : حلف مشركو مكة ، وبالغوا فى الحلف ، واجتهدوا أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم من جهد ، لئن جاءهم رسول كما جاء اليهودوالنصارى يدعوهم إلى عبادة الله ليكونن فى تصديقه واتباعه أهدى من كل أمة من اليهود ومن النصارى ، ومن أية أمة بلغت من الطاعة والهداية وحسن الاتباع أن يقال فيها واحدة الأمم تفضيلا لها على غيرها ، فلما جاءهم نذير أكرم نذير ، وهو أشرف الرسل محمد ﷺ مازادهم النذير أو مجيئه إلا نفورا وتباعدًا عن الحق ، وهرباً من الإيمان به .

٤٣ ـ (اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا) :

ترتبط هذه الآية بالآية التى قبلها وتُتِم معناها ، والمعنى : مازادهم الرسول أو مجيئه إلا تباعدًا عن الحق استكبارًا منهم ، وتجبرا فى الأرض واستعلاء وإمعاناً فى الشرك ، ومكر العمل السيء الذى يتفننون فى تبييته ، ويدينون به ، ويندفعون فيه من الخداع والصد عن الإيمان والكيد لرسول الله ، وإلحاق الأذى به وبأصحابه ؛ ظانين أن ذلك سيرد الدعوة ، ويضعف شوكة الرسول وصحبه ، جاهلين أن وبال مكرهم سينزل بهم ، ويذهب بكبريائهم ، ويذل استعلاءهم وعنادهم ، ولا يحيط المكر السيءُ ولا ينزل عقابه إلا بأهله الذين دبّروه وبيتوه ، ومن أمثال العرب : « من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبا » وعن كعب أنه قال لابن عباس : قرأت فى التوراة : « من حفر مَغْواةً وقع فيها » قال : وَجَدْتُ ذلك فى كتاب الله ، فقرأ الآية .

وفى الخبر : « لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله ـ تعالى ـ يقول : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » : ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، فإن الله ـ تعالى ـ يقول : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ » وقد حاق مكر هؤلاء بهم يوم بدر ، والأمور بعواقبها ووراء الدنيا الآخرة ، وصدق قول الله ـ تعالى ـ : (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ) أى : ما ينتظرون إلا سنة الله ـ تعالى ـ فيهم

بتعذيب مكذبيهم ، فلن تجد لسنة الله تبديلا بأن يضع موضع العذاب غير العذاب ، ولن تجد لسنة الله تحويلا بأن ينقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم ؛ فالله عادل لايضع الشيء في غير موضعه .

(أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(لِيُعْجِزَهُ) : ليمنعه بالقهر والغلبة . (كَسَبُوا) : فعلوا من السيئات (دَآبَّةٍ) : حيوان يدب على الأرض ؛ وقيل : المراد الإنس والجن .

التفسير

٤٤ - (أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَاكَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا) :

ذكرت الآية السابقة جريان سنة الله - تعالى - على المكذبين من الأمم السابقة بإنزال العذاب بهم وإهلاكهم .

وجاءت هذه الآية استشهادا وتأكيداً لهذا المعنى ، وتنويعاً فى المحاجّة بمالا يستطيعون دفعه ، ولا يتأتى منهم إنكاره .

والمعنى : أقعد هؤلاء المشركون فى مساكنهم ، ولم يسيروا فى الأرض ، ولم يتنقلوا بين ربـوعها فينظروا نظر اعتبار وتأمل بما يشاهدونه فى مسايرهم ، كيف كان عاقبة المكذبين من قبلهم من الأمم السابقة من آثار الدمار ، وعلامات الهلاك والخراب عقوبة لهم على معارضة أنبيائهم وتكذيبهم ، وقد كانت هذه الأمم أشد منهم قوة ، وأطول أعمارًا ، وأوسع نعمة ، فلم تغن عنهم قوة ، ولم يمنعهم طول أعمار ، ولم تدفع عنهم نعمهم من عذاب الله شيئاً ، وما كان الله ليمنعه عن مراده أى شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه ـ جلت قدرته ـ عليم لايغيب عن علمه شىء ، قدير لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب .

٤٥ ـ (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) :

كان المشركون من شدة عنادهم ، وفساد عقائدهم يتعجلون العذاب الذى يتوعدهم الله به ، فأخبر الله ـ تعالى ـ فى هذه الآية وفى مثيلاتها من الآيات التى تعرض لذكر العذاب وتتوعد به ، أن للعذاب أجلا مضروبا هو يوم القيامة .

والمعنى : ولو يؤاخذ الله الناس جميعاً ، ويعاقبهم بما كسبوا من السيئات ، ويعجل لهم العذاب فى الدنيا كما فعل بأسلافهم ، ما ترك ولا أبقى على ظهر الأرض من دابة تدب ، أو نسمة تدرج من إنسان وجن وحيوان ، قال ـ تعالى ـ : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً »[1] .

قال ابن مسعود : « كاد الجُعَل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم » فالمراد بالدابة على هـذا عموم المخلوقات ، وقيل : إن المراد بالدابة المكلفون من الإنس ، ويؤيده ذكر (الناس) وقوله ـ تعالى ـ : (وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) بضمير العقلاء العائد إلى الناس .

ويوم القيامة هو الأجل المضروب لبقاء نوعهم . (فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) أى : فإذا حل يوم القيامة فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصير بأحوالهم فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم ، إن شرا فشر ، وإن خيرا فخير ، ولا يظلم ربك أحدا .

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٢٥

سورة يس

وهى مكية وآياتها ثلاث وثمانون

المناسبة بينها وبين السورة التى قبلها أن السورة التى قبلها ذكرت النذير فى قوله تعالى : (لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ) وقوله : (فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ) وفسر النذير بأشرف الرسل والأنبياء محمد ﷺ فافتتحت سورة « يس » بالقسم على صدق رسالته ، واستقامة طريقه ، تبكيتاً للمشركين على إعراضهم عنه ، وتكذيبهم إياه .

كما أنها عرضت لبعض ماعرضت له السورة السابقة « فاطر » من حركات الشمس والقمر وغيرهما من الآيات الكونية .

أهداف السورة وأغراضها

ابتدأت سورة « يس » بالحديث عن صدق رسالة محمد ﷺ مؤكدة رسالته بالقسم : (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) ثم انتقلت إلى الحديث عن أحوال المشركين الذين حقت عليهم اللعنة بمعارضتهم الدعوة ، فرزحوا فى أغلال الشرك عماة عن الحق ، لا يجدى فيهم نصح ، ولا يؤثر معهم إرشاد أو توجيه ، وخلصت من هذا إلى الإشارة إلى البعث الذى يلقى فيه كل إنسان عمله فى إمام مبين ، وكتاب محفوظ .

ثم عرضت الآيات بعد هذا إلى قصة أصحاب القرية ، وشدة مقاومتهم للرسل الذين أرسلوا إليهم ، وقوة لددهم ، وسوء حوارهم معهم ، وتطيرهم منهم .

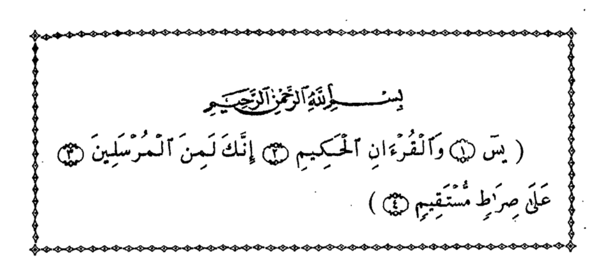
كما عرضت لحوار أهل القرية مع الرجل الصالح الذى جاءهم من أقصى المدينة مسرعاً ، يدعوهم إلى تصديق الرسل واتباعهم فيما يدعونهم إليه من الهداية التى هم عليها ، ولا يبتغون على ذلك نفعاً ، ولا يسألون أجرا ، فأوقعوا به ما أوقعوا مما أعقبه الجنة والنعيم ، وأوردهم موارد الهلاك والجحيم . (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) .

ثم انتقلت الآيات إلى عرض صور من مظاهر قدرة الله ، ومشاهد حكمته ، التى تصرف بها فى ملكوت السمٰوات والأرض ، وتصنيف النبات ، وتسخير الأفلاك ، وتفجير الأنهار والبحار وتسيير الفلك لنقل الأحمال والأثقال ، وغير هذا مما تتجلى فيه آيات القدرة ، وبدائع الصنعة .

وتنتهى الآيات من هذا إلى غرض يكاد يكون المقصود الأول فى سياق السورة وهو البعث ومصائر الخلق بعده ، فأصحاب الجنة فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، وأهل الشرك يدفعون إلى الجحيم « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » ويختم الله على أفواههم .

ثم تعود الآيات إلى مثل ما بدأت من صدق رسالة الرسول ، وتنزه قوله عن اللغو لتخلص منه إلى تعداد ألوان من القدرة تتمثل فى خلق الأنعام وتذليلها ، والانتفاع بها وبخيراتها وإنتاجها ، وبغير ذلك مما لا يتأتى منه شىء من آلهة المشركين المزعومة ، وتأتى فى هذا على أعظم ما تتجلى عنه قدرة الله من خلق الإنسان من ماء مهين ، ثم تسويته إنساناً سوياً ، وخصماً مبينا ، وتنعى عليه نسيان أصله ، وغفلة عقله حين يستبعد العودة إلى الحياة بالبعث ، وخلق العظام وهى رميم ، وتقرر أن الله الذى خلقها أول مرة هو القادر على إحيائها ، فقد عرفوا أنه قادر على أن يجعل من الشجر الأخضر ناراً مضطرمة ، وعلى خلق السموات والأرض ، فلا يعجزه أن يعيد خلق الإنسان ، فهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون .

وهكذا تدور السورة فى تجلية البعث فى صور مختلفة تقطع على كل منكر حجته ، وتؤكد لكل عاقل حقيقته .



بسم الله الرحمن الرحيم

(يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(الْحَكِيمُ) : المتضمن للحكمة ، أو الناطق بها .

(صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) المراد بالصراط المستقيم : ما يعم العقائد والشرائع الحقة الشريفة بكمالها .

التفسـير

١ - (يسٓ) :يصح أن تكون هذه الكلمة من قبيل الحروف المسرودة التي ابتدأت بمثلها سور أخرى ، مثل : (الٓمٓ) و (طسٓمٓ) وأمثالها ، فيكون الكلام عنها كالكلام الذى قيل فى مثيلاتها وبخاصة فى أول سورتى « البقرة ، وآل عمران » وهى على هذا خالية من الإعراب .

ويصح أن تكون اسماً للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه ، وعليه الأكثر ، وإعرابها على هذا كإعراب سائر التراجم . فهى مرفوعة خبرًا لمبتدإ محذوف ، أو منصوبة مفعولا به لفعل مضمر ، والتقدير : هذه يسٓ - أو اقرأ يسٓ .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - معناه :يا إنسان فى لغة « طيء » قالوا : والمراد به محمد ﷺ كما يشير إليه الخطاب بعده فى قوله - تعالى - : (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

قال الزمخشرى : إن صح هذا فوجهه أن يكون أصله : يا أليسين ، فكثر النداءُ به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما فى القسم بـ « مُ الله » فى « أيمن الله » .

وقال الآلوسى : وظاهر كلام بعضهم كابن جبير أن «يس» بمجموعه اسم من أسمائه -عليه الصلاة والسلام - ... ظاهر قول السيد الحميرى :

يا نفس لاتمحضى بالود جاهدة　　على المودة إلا آل ياسينا

ولتسميته - عليه الصلاة والسلام - بهذين الحرفين الجليلين سر جليل عند الواقفين على أسرار الحروف .

٢ ، ٣ ، ٤ - (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

قوله -تعالى-: « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » ابتداءُ قسم ، معناه : وأُقسم بالقرآن المحكم ، أو المتضمن للحكمة والناطق بها ، وقوله- تعالى - : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » جواب للقسم معناه : إنك يا مُحمد لمن المرسلين الذين أرسلهم الله لهداية أقوامهم بدعوتهم إلى الحق ، وتوجيههم إلى سبل الخير ، والجملة لرد إنكار المشركين المنكرين لرسالته ، المتمثل فى كثير من كلامهم فى مثل قولهم : « لَسْتَ مُرْسَلًا » . وفى مثل ما سبق فى سورة « فاطر » مما يشعر بأنهم فى قمة العناد ، من قوله -تعالى-: « فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ، اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ » .

وفى القسم بالقرآن أولا ، ووصفه بالحكمة ثانياً تنويه بقدره ، وإشادة بشأنه على أكمل وجه ، وأوفى بيان .

وقوله -تعالى-: (عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) خبر ثان داخل فى حيز القسم ، أى : إنك يامحمد لمن المرسلين ، وإنك على طريق مستقيم بالغ ذروة الكمال فى الاستقامة ، والبعد عن الزيغ والانحراف ، قائم على العقائد الصحيحة ، والشرائع الحقة الشريفة بكمالها ، وتضمنها كل خير للإنسان والإنسانية كما يفهم من التنكير المفيد للتعظيم والتفخيم ، والمقصود من هذه الآية التنويه بشأنه ﷺ وإعلاء قدره ، وتقرير أنه على السنة المثلى والطريق السوى ، فإن أحدا من أهل النظر لا يجهل أن المرسلين جميعاً على صراط مستقيم .

(تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(لِتُنذِرَ) : لتخوف وتعظ .

(لَقَدْ حقَّ الْقَوْلُ) : لقد ثبت ووجب القول بالعذاب .

التفسير

٥ ، ٦ - (تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) :

قوله -تعالى- : (تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) : استئناف لإظهار فخامة القرآن الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بالقسم به ، ووصفه بالحكمة .

والمعنى : نزل هذا القرآن تنزيلا على محمد من الله العزيز فى ملكه ، الرحيم بخلقه . ولهذا قال الله فى شأنه : « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وفى تخصيص الاسمين الكريمين المعبرين عن الغلبة الكاملة ، والرحمة الشاملة مزيد من التنويه بفضل القرآن الكريم ، وسمو مرتبته .

وقوله تعالى : « لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) : تعليل للتنزيل متعلق به ، أى : نَزَّل هذا القرآن العظيم العزيزُ الرحيمُ ؛ لتخوف به يا محمد قوماً لم ينذر ولم يخوف بمثله آباؤُهم الأقربون ؛ لتطاول مدة الفترة عليهم حتى تغشاهم الجهل . وران على قلوبهم الكدر فهم غافلون لا تستشعر قلوبهم رسالة ، ولا تستشرف لرسل قبله حتى أصبحوا فى الحاجة الملحة إلى من ينذرهم ويرشدهم تخويفاً من عذاب الله ، وطمعًا فى رحمته .

وقيل : إن المعنى لتنذر قوماً الإنذار الذى أُنذر بمثله آباؤهم الأقدمون فى عهد إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فنسوه وغفلوا عنه ، فـ(ما) هنا فى قوله : « مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ » مصدرية وليست نافية .

وهناك وجه غفل عنه معظم المفسرين ، وهو أن رسالة إسماعيل - عليه السلام - كانت للعرب العاربة ، أما العرب المستعربة الذين نشأوا من ذرية إسماعيل فلم يأْتهم رسول قبل محمد ﷺ وقريش من ذريتهم .

٧ - (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى : والله لقد ثبت القول بعدم الإيمان على أكثر هؤلاء المشركين بسبب إصرارهم على الشرك ، وإعراضهم عن إجابة الرسول ، وعدم تأثرهم بالإنذار ، والتذكير ، وغلوهم فى العتو والعناد ، حتى صح فيهم قول القرآن على لسان إبليس : « وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »[1] .

وقوله تعالى : (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) متفرع على إصرارهم على الشرك ، وتماديهم فى العناد والمعنى : فهؤلاء مصرون على الشرك إلى الموت ، مختارون له لا ينتظر منهم امتثال ، ولا يرجى ، لهم إيمان باختيارهم ، ولهذا هداهم الله إليه بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة .

(إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(أَغْلَٰلًا) : جمع غل ، وهو القيد الذى يوضع فى العنق ، تشد به اليد إلى العنق .

(١) سورة الحجر ، من الآية : ٣٩

(مُقْمَحُونَ) : رافعو رءوسهم ، غاضُّو أبصارهم ، من : قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب .

(سَدًّا) : حاجزًا ومانعاً .

(أغشَيْناهُمْ) : غطينا أبصارهم وأعميناهم .

التفسير

٨ ، ٩ - (إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) :

هاتان الآيتان وما بعدهما تأكيد لمعانى الآية السابقة ، وتقرير لتصميم المشركين على شركهم ، وعدم إذعانهم للحق بتمثيل حالهم بحال من جعلت الأغلال فى أعناقهم منتهية إلى أذقانهم ، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولايعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له فهم مقمحون رافعون رءوسَهم غاضون أبصارهم بحيث لايكادون يرون الحق ، أو يلتفتون إلى جهته .

وقوله -تعالى- : (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) : من تمام التمثيل وتكميله ، أى : وجعلنا مع ماذكر من الأغلال أمامهم سداً عظيماً ، ووراءهم سَدًّا مثله . فأغشيناهم بذلك ، وغطينا أبصارهم فهم لايقدرون على إبصار شىء أصلا لا من أمامهم ولا من خلفهم .

ويصح أن يكون تمثيلا مستقلا ، فإن جعلهم بين سدين هائلين يغطى أبصارهم بحيث لايبصرون شيئاً ، ويعطى صورة جديدة تنم عن كمال فظاعة حالهم ، وكونهم محبوسين فى مطمورة الغىّ والجهالات محرومين من النظر والانتفاع بالأدلة والآيات .

وقيل : الآيتان فى بنى مخزوم ؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا ﷺ يصلى ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلى ، ومعه حجر ليدمغه ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم .

والأولى أن تبقى الآية على عمومها متممة لسياق الآيات قبلها وبعدها ، ولامانع أن يكون أبوجهل ضمن ما اشتملت عليهم من المشركين الذين حق القول على أكثرهم ، وتكون الآية من قوله ـ تعالى ـ :

١٠ ـ (وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

بياناً لشأنهم بطريق التصريح إثر بيانه بطريق التمثيل ، أى : ويستوى عند هؤلاء المشركين المصرين على الكفر إنذارك إياهم وعدم إنذارك فقد اختاروا لأنفسهم ، وحق عليهم العذاب والنكال .

وقوله : (لَا يُؤْمِنُونَ) استئناف مؤكد لما قبله ، موضح لإجمال ما فيه الاستواء .

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(تُنذِرُ) : تخوف وتبلغ . (الذِّكْرَ) : القرآن .

(خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) أى : خاف عقاب الله قبل حلوله ، أو من غير أن يراه ، أو خافه فى سريرته ، ولم يغتر برحمته .

(نُحْيِي الْمَوْتَى) : نبعثهم من موتهم يوم القيامة للحساب .

(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) : ونكتب ما أسلفوا من أعمال صالحة وغير صالحة .

(وَآثَارَهُمْ) : أعمالهم التى تبقى بعد موتهم .

(أَحْصَيْنَاهُ) : بيناه وحفظناه ، وأصل الإحصاء العد للحفظ .

(إِمَامٍ مُبِينٍ) : أصل عظيم ، مظهر لما كان وسيكون ، وهو اللوح المحفوظ .

التفسير

١١ - (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) :

لما قررت الآية السابقة أن إنذار الرسول وعدمه سواء فيمن أصر على تنكب طريق الصواب ناسب أن تجىء هذه الآية لتجلية حقيقة من ينتفع بأُسلوب التذكير من القلوب اللينة ، والنفوس الخصبة التى تحسن اتباع القرآن خشية من الرحمن ، وجاءت الآية بعدها لبيان أن الله هو الذى يحيى موات القلوب ، كما يحيى الموتى ، وذلك حين يجىء أوان الهداية ، وقد حدث ذلك عند فتح مكة .

والمعنى : إنما يجدى الإنذار ، ويؤتى ثماره ، ويتحقق نفعه ، وتظهر آثاره مع من اتبع القرآن وتدبره ، وأدام فكره ونظره فيه ، وتأمل معانيه ، ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان ، وخشى الرحمن بالغيب ، فخاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله ، أو خشى الرحمن وهو غائب عنه ، أو خشى الرحمن وتحاشى معصيته فى سريرته ، كما يتحاشاها فى علانيته وجلوته ، فمن كان هذا حاله ، وذاك سلوكه ، فهو حرى أن يبشره بمغفرة واسعة ، وأجر كريم عظيم ، لايقادر قدره ، ولا يخضع للتقدير حَزْره .

١٢ - (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ) :

تنتهى الآيات السابقة كلها بهذه الآية تذييلا عاماً ينتظم المصممين على الكفر ، والمنتفعين بالإنذار والتخويف ترهيباً وترغيبا ، ووعيدًا ووعدًا ، وإيذاناً بأن الله الذى سوف يحيى موتاهم عند البعث ، سيحيى موات قلوبهم حينما يجىء أوان هدايتهم ، وقد تم ذلك فى السنة الثامنة من الهجرة حيث أسلموا جميعاً عند فتح مكة .

والمعنى : إنا نحن - وحدنا دون غيرنا - القادرون على أن نحيى الموتى جميعاً المؤمنين منهم والكافرين ، المصدقين بالبعث منهم والمكذبين ، ونبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ونكتب ونثبت ماقدموا وأسلفوا من الأعمال الصالحة وغير الصالحة ، ونحفظها لهم ، ونثبت آثارهم التى يبقى بعد موتهم ثوابها من الحسنات : من علم علّموه ،

أو كتاب ألّفوه ، أو نبع أجروه ، أو أرض وقفوا غلتها على الفقراء والمعوزين ، أو غير ذلك من نواحى البر ووجوه الخير ، كما نثبت آثارهم السيئة التى يبقى بعد موتهم شرها وضرها من القوانين الظالمة التى سنوها ، والعادات القبيحة التى اعتادوها واعتادها الناس تبعاً لهم ، والمظالم التى ارتكبوها ، وغير ذلك من ضروب الشر ، وألوان الفساد والمنكر .

أخرج ابن أبى حاتم عن جرير بن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله ﷺ : « من سَنَّ سنة حسنة فله أجْرُها وأجرُ مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن سنَّ سنةً سيئةً كان عليه وِزْرُها ووزر مَن عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئاً ، ثم تلا : « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » .

وفسر بعضهم الآثار بالخُطى إلى المساجد ، مستظهرين على ذلك بما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير ، وابن المنذر ، والترمذى وحسنه عن أبى سعيد الخدرى - قال : كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله -تعالى- : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) : فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : « إنه يكتب آثاركم ثم تلا عليهم الآية فتركوا » .

والأظهر أن تحمل الآثار على ما يعم الخطى إلى المساجد ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة والطالحة ويترجح ذلك بأمور :

١ - أن الآية تذييل عام لكل ما سبقها من آيات .

٢ - أن السورة مكية ، واعتبار هذه الآية فى بنى سلمة يجعلها مدنية بين آيات السورة كلها .

٣ - أن قصارى ما يفيده الخبر اعتبار الخطى إلى المساجد من الآثار التى يبقى ثوابها بعد موت صاحبها ، وتعميم ذلك خير من تخصيصه .

وقوله -تعالى- : (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) معناه : وكل شىء من الأعمال كائنا ما كان قليلا أو كثيرًا ، عظيماً أو صغيرًا ، نافعاً أو ضارًا ، بيناه وحفظناه فى إمام مبين ، وأصل عظيم الشأن مظهرًا لما كان وما سيكون ، وهو اللوح المحفوظ الذى يؤتم به ويقتدى ، ويتبع ولا يخالف .

(وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا) : ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا ... » الآية ، وتارة أخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها .

(الْقَرْيَةِ) قيل : إنها إنطاكية (فَعَزَّزْنَا) : قوينا ودعمنا .

(الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : التبليغ الواضح .

التفسير

١٣ ، ١٤ – (واضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) :

انتقلت الآيات إلى قصة أصحاب القرية وحوارهم مع الرسل الذين أرسلهم الله تأييدًا لعيسى ، كما أرسل هارون تأييدًا لموسى – عليه السلام – وذلك تسلية للرسول ﷺ وتخويفاً للمشركين من مغبة إصرارهم على العناد والكفر .

والمعنى : واجعل يارسول الله أصحاب قرية إنطاكية مثلا لهؤلاء المشركين ، وطبق حال أمتك وسلوكهم معك ومثِّله بحالهم من الغلو فى الكفر ، والإصرار على تكذيب الرسل ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك ، طبق هذا وقِسْهُ حتى يدركوا عاقبة سوء فعلهم ، ومآل كفرهم وعنادهم .

ومعنى (إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ) أى : وقت أن جاء أهلها المرسلون الذين أرسلهم الله تأييدًا لعيسى — عليه السلام — يدعون إلى توحيد الله ، واختصاصه بالعبادة ، وترك عبادة غيره .

وقوله — تعالى — : (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) : تفصيل للإجمال فى قوله : (إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ) .

ومعنى (إِذْ أَرْسَلْنَا) أى : وقت أن أرسلنا إليهم رسولين هما : « يحيى ، وبولس » — على ما قيل — وقوله تعالى — : (فَكَذَّبُوهُمَا) يشير إلى إيجاز فى الأسلوب مفاده : فأتياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما فعززناهما وقويناهما برسول ثالث هو « شمعون » — على ماقيل — فقال ثلاثتهم لأهل القرية : (إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) ندعوكم لعبادة الله دون غيره من الآلهة العاجزة التى لا تنفع ولا تضر ، وجاء قولهم : (إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) : مؤكدا يناسب حالهم وتكذيبهم للرسولين الأولين .

١٥ — (قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) :

أى : قال أصحاب القرية إنكارًا لقول الرسل لهم : (إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) : ما أنتم فى أية حال من أحوالكم إلا بشر منا ومثلنا فأنى لكم مزية موجبة لاختصاصكم بهذه الدعوة ، والارتفاع إلى مستوى القيادة علينا والدعوة لنا .

ثم يتدرجون فى الإنكار عليهم وتكذيبهم بإثبات البشرية لهم ، فينكرون أن يكون الله — تعالى — قد أنزل شيئاً مما يدعونهم إليه من الوحى والرسالة ، ثم يترقون من ذلك إلى تكذيبهم تكذيباً مباشرًا صريحاً بقولهم : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) بأسلوب يحصرهم فى إطار الكذب والاختلاق ، ويسجل عليهم التمادى فيه .

١٦ – ١٧ – (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

أى : قال الرسل لأهل القرية : ربنا وحده يعلم حقيقة رسالتنا، وصدق دعوتنا، ويعلم إنا إليكم لمرسلون لتبليغكم الرسالة ، ودعوتكم إلى التوحيد ، يردون بذلك تكذيب أهل القرية ويسفهون قولهم بإشارات ثلاث :

أولا : بإسناد علم الرسالة إلى الله –تعالى– ردا على قولهم : (مَآ أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ) وهو أسلوب جرى مجرى القسم مع مافيه من تخويفهم ، وتحذيرهم معارضة علم الله .

ثانيا : بإعادة القول بتأكيد إرسالهم إليهم مع اختصاص الله بعلمه ، وأنهم لاينكرونه إلا عنادا ومكابرة .

ثالثا : ببيان أن مهمتهم تبليغ الرسالة تبليغا واضحا بالآيات الشاهدة على صدقه ، وأنهم بهذا التبليغ قد خرجوا عن عهدته ، فلا مؤاخذة لهم من جهة الله – تعالى – سواء صدقوا أو كذبوا .

(قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(تَطَيَّرْنَا) : تشاءمنا ، وأصل التطير : التفاؤل والتشاؤم بالطير .

(لَنَرْجُمَنَّكُم) : لنرمينكم بالحجارة حتى تموتوا .

(لَيَمَسَّنَّكُمْ) : ليصيبنكم .

(أَلِيمٌ) : موجع .

(طَآئِرُكُمْ) : سبب شؤمكم .

(مُسْرِفُونَ) : مجاوزون الحد فى العصيان مستمرون عليه .

التفسير

١٨ - ١٩ - (قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَآئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) :

تطور حوار أهل القرية مع الرسل من مجرد التكذيب والإنكار إلى الشتم والتهديد ، والتوعد المقترن بالقسم ، قالوا لما ضاقت عليهم الحيل ، وعييت بهم العلل ، وانسدت أمامهم أساليب الجدل - قالوا - للرسل جريا على عادة الجهال : إنا تشاءمنا بوجودكم ، وضقنا من قولكم ، ثم أتبعوا ذلك قولهم توعدا مؤكدا بالقسم ، والله لئن لم ترجعوا عن دعوتكم ، وتمسكوا عن مقالتكم ، لنرمينكم بالحجارة وليصيبنكم منا عذاب أليم ، وإيذاء موجع لايقادر قدره .

قيل : إن سبب التطير انقطاع المطر عنهم ، أو انتشار الجذام فيهم - والله أعلم بصحة ذلك - ورد عليهم الرسل ، قالوا : طائركم وتشاؤمكم ملازم لكم ، نابع من قبح أعمالكم ، وسوء عقيدتكم ، ومافعلنا معكم مايقتضى تشاؤما ، أو يثير ضيقا ، سوى أن ذكرناكم وخوفناكم عذاب ربكم ، ودعوناكم لما فيه سلامتكم وسعادتكم ، وليس فى ذلك مايقتضى تشاؤما ، بل أنتم قوم مسرفون ومتجاوزون الحد فى الظلم والعتو ، ممعنون فى الشرك تعيشون فيه وتقيمون عليه ، والمصائب التى حاقت بكم من سوء أعمالكم .

(وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَقْصَى الْمَدِينَةِ) : أبعد مكان فيها .

(رَجُلٌ) قيل : هو حبيب النجار .

(يَسْعَىٰ) : يعدو مسرعا فى عدوه ومشيه .

التفسير

٢٠-٢١- (وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لَّايَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ) :

انتقلت الآيات من حوار أهل القرية مع الرسل إلى حوار بين رجل من أهل القرية وقومه تنويعا فى أسلوب التأسية ، وتوسيعا فى صور التسلية للرسول ﷺ وأصحابه .

والمعنى : وجاء من أبعد موضع فى المدينة رجل من أهلها يسرع فى عدوه ، ويجد فى سيره إثر تورط قومه فى تهديد الرسل ، وارتفاع أصواتهم بتوعدهم ، ينصحهم حرصا على هدايتهم ، وخوفا على الرسل منهم ، قال بنداء يتألف به قلوبهم : «يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) أى : صدقوا وأجيبوا المرسلين الذين أرسلهم الله لدعوتكم وهدايتكم ، وتحريركم عن الشرك ، وعبادة الأوثان .

(اتَّبِعُوا مَن لَّايَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ) أى : أجيبوا دعاء من لايبتغون من وراء دعوتكم أجرا ولايطلبون على إجابتها نفعا ولا كسبا ، وإنما يقومون بها امتثالا لأمر الله ، ورجاءً فى هدايتكم وإرشادكم إلى مافيه استقامة دنياكم ، وسعادة آخرتكم ، وحسبكم فى صدقهم وتصديقكم لهم أنهم يدعونكم لما هم مهتدون إليه ، طامعون أن يكون لكم من الخير والهداية مايرجونه لأنفسهم دون أن يطلبوا على ذلك أجرا ، وذلك دليل على صدقهم .

قال وهب : كان حبيب مجذوما ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة ، وكان يدعوهم لعلهم يرحمونه ، ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ؛ فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله ، فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر يفرج عنك مابك ، فقال : إن هذا لعجيب ! ! ! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ ؟ فقالوا : نعم ، ربنا على مايشاء قدير ! ! وهذه لاتنفع شيئا ولاتضر ، ودعوا ربهم فكشف الله عنه كأن لم يكن به بأس ، فآمن وأقبل على التكسب ؛ فإذا أمسى تصدق من كسبه ، فأطعم عياله نصفا ، وتصدق بنصف . فلما هم قومه بقتل الرسل جاء فنصحهم ــ والله أعلم بصحة هذا الخبر .

(وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾)

المفــردات :

(فَطَرَنِى) : خلقنى وابتدأ وجودى ، من : فطر البئر إذا ابتدأ حفرها .

(تُرْجَعُونَ) : تردون من الموت إلى الحياة بالبعث .

التفسـير

٢٢ - ٢٤ - (وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُـونَ . ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إن يُرِدْنِ الرَّحْمٰـنُ بِضُرٍّ لَّاتغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ . إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

هذه الآيات ومابعدها استمرار من الرجل فى حوار قومه مع التلطف والملاينة فى إرشادهم بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما اختار لها مع التعريض بهم والتقريع لهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره .

والمعنى : وأى شىء أصابنى ؟ وأى سفه خالط عقلى حتى أمسك عن عبادة ربى الذى ابتدأ خلقى ، وابتدع وجودى ووجودكم ، وله مرجعى ومرجعكم نرجع إليه بالبعث فيجازينا بأعمالنا خيرا وثوابا أو شرا وعقابا ؟

ومعنى قوله -تعالى -حكاية عنه : (ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ....) إلى آخر الآية أيستقيم لى ويتأتى فى عقلى أن أتخذ من دون الله آلهة غيره ، أعبدهم وأدين لهم ، إن يردنى - سبحانه وتعالى - بضر ، ويقدره على؛ لاتغنى شفاعتهم عنى شيئا من النفع ، ولاتقدر أن تخلصنى

وتنقذنى مما أراده لى وقدره على بالنصرة والمظاهرة ؛ إنى إذا فعلت ذلك لفى ضلال مبين وهلاك أكيد ؛ لأن إشراك ماليس من شأنه جلب النفع ، ولادفع الضر ، بالخالق القادر الذى لاقادر غيره ولاخير إلا خيره ، سفه بين وضلال واضح .

(إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾)

التفسير

٢٥ ـ (إِنِّيٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) :

الخطاب فى هذه الآية يحتمل أن يكون من الرجل للرسل بعد أن نصح قومه بما نصحهم به ، فهموا بقتله ، فأسرع نحو الرسل قائلا : (إِنِّيٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ) وأكده لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة ، وصادق اليقين ، وأضاف الرب إلى ضميرهم لزيادة التقدير كأنه قال : بربكم الذى أرسلكم إلينا والذى تدعوننا إلى الإيمان به .

ومعنى (فَاسْمَعُونِ) : فاسمعوا إيمانى ، وسجلوه على ، واشهدوا لى به عند ربكم وربى . ويحتمل أن يكون الخطاب من الرجل لقومه شافههم به إظهارا للتصلب فى الدين ،

وعدم المبالاة بهم ، وإضافة الرب إلى ضميرهم لبطلان ماهم عليه من اتخاذ الأصنام أربابا ، ويقال : إنهم قتلوه بعد أن وقف فى صف الرسل وقفة متينة .

٢٦ـ٢٧ ـ (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) :

اشتملت الآيتان على جوابين عن سؤالين مقدرين :

الأول : كيف كان لقاؤه ربه بعد هذا التمسك بالدين ، وقتل قومه له ؟ ؟ .

والجواب : قيل له : ادخل الجنة جزاءً موفوراً على صدق إيمانك ، وسخائك بروحك ويكون ذلك تبشيراً له بدخولها ، ووعدا له بها وأنه من أهلها .

الثانى : فماذا قال بعد نيله تلك الكرامة ، وتلقيه هذه البشرى ؟ ؟ .

والجواب : تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالرجوع عن الكفر ، والدخول فى الإيمان إشفاقاً على قومه أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وأمرهم ، وأن عداوتهم له لم تكسبه إلا سعادة ونعيما .

ومعنى (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) : ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى بإيمانى به وتركى عبادة الأصنام وأنه أعقبنى بذلك هذا الفوز العظيم ، والمراد تعظيم رحمته ، وتفخيم مغفرته تعالى .

وبالجملة فقد تمنى الرجل أن يعلم قومه حاله ، وعاقبة أمره لقاء إيمانه ، وصدق يقينه وتصلبه فى دينه ، وسخائه بروحه فداءً لعقيدته ، وانتصاراً لرسله حتى استحق أن يكون من جملة المكرمين من الله المبشرين بجنته ، الموعودين بنعيمه فى حظيرة قدسه ، ودار أنسه ، ومستقر رحمته .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٦

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٥٥٨٣ س ١٩٨٦ — ٢٥٠٠٤





٢٥